تفسير سورة المطففين

وهي مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

قال النسائي وابن ماجه: أخبرنا محمد بن عقيل ـ زاد ابن ماجه: وعبد الرحمن بن بشر ـ قالا: حدثنا علي بن الحسين بن واقد، حدثني أبي، عن يزيد ـ هو ابن أبي سعيد النحوي، مولى قريش ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فحسَّنوا الكيل بعد ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن النضر بن حماد، حدثنا محمد بن عبيد، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن عبد الله بن الحارث، عن هلال بن طلق قال: بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من أحسن الناس هيئةً وأوفاه كيلاً؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾. وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا ابن فضيل، عن ضرار، عن عبد الله المكتب، عن رجل، عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيل. قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ حتى بلغ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾. فالمراد بالتطفيف ها هنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم. ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ أي: ينقصون. والأحسن أن يجعل «كالوا» و«وزنوا» متعدياً ويكون هم في محل نصب، ومنهم من يجعلها ضميراً مؤكداً للمستتر في قوله: «كالوا» «وزنوا»، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما متقارب.

وقد أمر الله ـ تعالى ـ بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٩]. وأهلك الله قوم شعيب ودمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان. ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾؟ أي: أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ أي: يقومون حفاة عراة غُرلاً، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله، ما تعجزُ القوى والحواس عنه. قال الإمام مالك عن نافع، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». رواه البخاري، من حديث مالك وعبد الله بن عون، كلاهما عن نافع، به. ورواه مسلم من الطريقين أيضاً. وكذلك رواه صالح وثابت بن كيسان وأيوب بن يحيى، وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر، ومحمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، به. ولفظ الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾: لعظمة الرحمن ﷻ يوم القيامة، حتى إن العرق لَيُلجِمُ الرجال إلى أنصاف آذانهم».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني سليم بن عامر، حدثني المقداد ـ يعني ابن الأسود الكندي ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامة أدنيت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً». رواه مسلم، عن الحكم بن موسى، عن يحيى بن حمزة ـ والترمذي، عن سويد، عن ابن المبارك ـ كلاهما عن ابن جابر، به. **حديث آخر**: قال الإمام

أحمد: حدثنا الحسن بن سوّار، حدثنا الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح: أن أبا عبد الرحمن حدثه، عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يُعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق». انفرد به أحمد. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو عُشّانة حي بن يُؤمنُ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ وسط فيه ـ وأشار بيده فألجمها فاه، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ـ ومنهم من يغطيه عرقه». وضرب بيده إشارة. انفرد به أحمد. وفي حديث: أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون. وقيل: يقومون ثلاثمائة سنة. وقيل: يقومون أربعين ألف سنة. ويقضي بينهم في مقدار عشرة آلاف سنة، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو عون الزيادي، أخبرنا عبد السلام بن عجلان، سمعت أبا يزيد المدني، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ لبشير الغفاري: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين، من أيام الدنيا، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر؟». قال بشير: المستعان الله. قال: «فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة، وسوء الحساب». ورواه ابن جرير من طريق عبد السلام، به. وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة. وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء، لا يكلمهم أحد، قد ألجم العرق برّهم وفاجرهم. وعن ابن عمر: يقومون مائة سنة. رواهما ابن جرير. وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه، من حديث زيد بن الحباب، عن معاوية بن صالح، عن أزهر بن سعيد الحواري، عن عاصم بن حميد، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: «اللهم اغفر لي واهدني، وارزقني وعافني». ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول: حقاً ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين ـ فعيل من السِّجن، وهو الضيق ـ كما يقال: فسّيق وشرّيب وخمّير وسكّير، ونحو ذلك. ولهذا عظم أمره فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾؟ أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم وعذاب أليم. ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب، في حديثه الطويل: يقول الله ﷻ في روح الكافر: اكتبوا كتابه في سجين. وسجين: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: صخرة تحت الأرض السابعة خضراء. وقيل: بئر في جهنم. وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً منكراً لا يصح فقال: حدثنا إسحاق بن وهب الواسطي، حدثنا مسعود بن موسى بن مُشكان الواسطي، حدثنا نصر بن خُزيمة الواسطي، عن شعيب بن صفوان، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الفلق: جب في جهنم مغطى، وأما سجين فمفتوح». والصحيح أن «سجيناً» مأخوذ من السِّجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة. ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥، ٦]. وقال ها هنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]. وقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد؛ قاله محمد بن كعب القرظي. ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السِّجن والعذاب المهين. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿وَيْلٌ﴾ بما أغنى عن إعادته، وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار، كما يقال: ويل لفلان. وكما جاء في المسند والسنن من رواية بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يُحدِّث فيكذب، ليضحك الناس، ويل له، ويل له». ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ أي: لا يصدقون بوقوعه،

ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: معتد في أفعاله؛ من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح والأثيم في أقواله: إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر. وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: إذا سمع كلام الله من الرسول، يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾. والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين.

وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صُقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾». وقال الترمذي: حسن صحيح. ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، فإن عاد فيها حتى يعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾». وقال أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾». وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب، فيموت. وكذا قال مجاهد بن جبر وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: لهم يوم القيامة منزلٌ ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم. قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ يومئذٍ. وهذا الذي قاله الإمام الشافعي، رحمه الله، في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنات الفاخرة. وقد قال ابن جرير محمد بن عمار الرازي: حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾، قال: يكشف الحجاب، فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون. كلّ يوم غدوة وعشية ـ أو كلاماً هذا معناه ـ. قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى: حقاً ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ وهم بخلاف الفجار، ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ أي: مصيرهم إلى عليين، وهو بخلاف سجين. قال الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين، قال: هي الأرض السابعة. وفيها أرواح الكفار. وسأله عن علّيين فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين. وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ يعني: الجنة. وفي رواية العوفي، عنه: أعمالهم في السماء عند الله. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: عليون: ساق العرش اليمنى. وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى. والظاهر: أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع؛ ولهذا قال معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾. ثم قال مؤكداً لما كتب لهم: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾، وهم الملائكة، قاله قتادة. وقال العوفي، عن ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي: السرر تحت الحجال، ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل: معناه ينظرون في مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد. وقيل: معناه ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى الله ﷻ.

وهذا مقابلة لما وُصف به أولئك الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم، كما تقدم في حديث ابن عمر: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين». وقوله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم.

وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: يسقون من خمر من الجنة. والرحيق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن سعد أبي المجاهد الطائي، عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري ـ أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ ـ قال: «أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم. وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة. وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُري، كساه الله من خُضر الجنة». وقال ابن مسعود في قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: خلطه مسك. وقال العوفي، عن ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك، خُتم بمسك. وكذا قال قتادة والضحاك. وقال إبراهيم والحسن: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: عاقبته مسك. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا أبو حمزة، عن جابر، عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي الدرداء: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة، يختمون به شرابهم. ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال: طيبه مسك. وقوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون. كقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]. وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم، أي: من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه. قاله أبو صالح والضحاك، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يشربها المقربون صرفاً، وتُمزجُ لأصحاب اليمين مزجاً. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وقتادة، وغيرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم، ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: إذا انقلب، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨ ـ ١١١]. ولهذا قال ها هنا: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: إلى الله ﷻ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟ أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

آخر تفسير سورة «المطففين»

❀ ❀ ❀

(٨٣) سورة المطففين مكية وآياتها ست وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ اعلم أن اتصال أول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر ، لأنه تعالى بين فى آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر كله لله وذلك يقتضى تهديداً عظيما للعصاة ، فلهذا أتبعه بقوله (ويل للمطففين) والمراد الزجر عن التطفيف ، وهو البخس فى المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية ، وذلك لأن الكثير يظهر فيمنع منه ، وذلك القليل إن ظهر أيضاً منع منه ، فعلمنا أن التطفيف هو البخس فى المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية ، وههنا مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ الويل ، كلمة تذكر عند وقوع البلاء ، يقال ويل لك ، وويل عليك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى اشتقاق لفظ المطفف قولان (الأول) أن طف الشيء هو جانبه وحرفه ، يقال طف الوادى والإناء ، إذا بلغ الشيء الذى فيه حرفه ولم يمتلىء فهو طفافه وطفافه وطففه ، ويقال هذا طف المكيال وطفافه ، إذا قارب ملأه لكنه بعد لم يمتلىء ، ولهذا قيل الذى يسيء الكيل ولا يوفيه مطفف ، يعنى أنه إنما يبلغ الطفاف (والثانى) وهو قول الزجاج : أنه إنما قيل الذى ينقص المكيال والميزان مطفف ، لأنه يكون الذى لا يسرق فى المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف ، وههنا سؤالات :

﴿ الأول ﴾ وهو أن الاكتيال الأخذ بالكيل ، كالاتزان الأخذ بالوزن ، ثم إن اللغة المعتادة أن يقال اكتلت من فلان ، ولا يقال اكتلت على فلان ، فما الوجه فيه ههنا ؟

(الجواب) من وجهين (الاول) لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا فيه إضرار بهم وتحامل عليهم ، أقيم على مقام من الدالة على ذلك (الثانى) قال الفراء : المراد اكتالوا من الناس ، وعلى ومن

فى هـذا الموضع يعتقبان لأنه حق عليه ، فإذا قال اكتلت عليك ، فكأنه قال أخذت ما عليك ، وإذا قال اكتلت منك ، فهو كقوله استوفيت منك .

﴿السؤال الثانى﴾ هو أن اللغة المعتادة أن يقال كالوا لهم ، أووزنوا لهم ، ولا يقال كلته ووزنته فما وجه قوله تعالى ﴿إذا كالوهم او وزنوهم﴾ (والجواب) من وجوه (الأول) أن المراد من قوله (كالوهم أو وزنوهم) كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف الجار وأوصل الفعل . قال الكسائى والفراء : وهذا من كلام أهل الحجاز ، ومن جاورهم يقولون : زنى كذا ، كلى كذا ، ويقولون صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك ، فعلى هذا الكناية فى كالوهم ووزنوهم فى موضع نصب (الثانى) أن يكون على حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، والتقدير : وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم (الثالث) يروى عن عيسى بن عمر ، وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين توكيداً لما فى كالوا ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا ، وزعم الفراء والزجاج أنه غير جائز ، لأنه لو كان بمعنى كالوا هم لكان فى المصحف ألف مثبتة قبل هم ، واعترض صاحب الكشاف على هذه الحجة ، فقال إن خط المصحف لم يراع فى كثير منه حد المصطلح عليه فى علم الخط (والجواب) أن إثبات هذه الألف لو لم يكن معتاداً فى زمان الصحابة فكان يجب إثباتها فى سائر الاعصار ، لما أنا نعلم مبالغتهم فى ذلك ، فثبت أن إثبات هذه الألف كان معتاداً فى زمان الصحابة فكان يجب إثباته ههنا .

﴿السؤال الثالث﴾ ما السبب فى أنه قال (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا) ولم يقل إذا اتزنوا ، ثم قال (وإذا كالوهم أو وزنوهم) فجمع بينهما ؟ (الجواب) أن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر .

﴿السؤال الرابع﴾ اللغة المعتادة أن يقال خسرته ، فما الوجه فى أخسرته ؟ (الجواب) قال الزجاج أخسرت الميزان وخسرته سواء أى نقصته ، وعن المؤرج يخسرون ينقصون بلغة قريش .

﴿المسألة الثانية﴾ عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم نبى الله المدينة كانوا من أبخس الناس كيلا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك ، وقيل كان أهل المدينة تجاراً يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة ، فنزلت هذه الآية ، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم ، وقال «خمس بخمس ، قيل يارسول الله ، وما خمس بخمس ؟ قال ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » .

﴿المسألة الرابعة﴾ الذم إنما لحقهم بمجموع أنهم يأخذون زائداً ، ويدفعون ناقصاً ، ثم اختلف العلماء ، فقال بعضهم : هذه الآية دالة على الوعيد ، فلا تتناول إلا إذا بلغ التطفيف حد الكثير ، وهو نصاب السرقة ، وقال آخرون بل ما يصغر ويكبر دخل تحت الوعيد ، لكن بشرط

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

أن لا يكون معه توبة ولا طاعة أعظم منها ، وهذا هو الأصح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج أصحاب الوعيد بعموم هذه الآية ، قالوا وهذه الآية واردة فى أهل الصلاة لا فى الكفار ، والذى يدل عليه وجهان (الأول) أنه لو كان كافراً لكان ذلك الكفر أولى باقتضاء هذا الويل من التطفيف ، فلم يكن حينئذ للتطفيف أثر فى هذا الويل ، لكن الآية دالة على أن الموجب لهذا الويل هو التطفيف (الثانى) أنه تعالى قال للمخاطبين بهذه الآية (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) فكأنه تعالى هدد المطففين بعذاب يوم القيامة ، والتهديد بهذا لا يحصل إلا مع المؤمن ، فثبت بهذين الوجهين أن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة (والجواب) عنه ماتقدم مراراً ، ومن لواحق هذه المسألة أن هذا الوعيد يتناول من يفعل ذلك ومن يعزم عليه إذ العزم عليه أيضاً من الكبائر . واعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم . وذلك لأن عامة الخلق يحتاجون إلى المعاملات وهى مبنية على أمر المكيال والميزان ، فلهذا السبب عظم الله أمره فقال (والسماء رفعها ووضع الميزان ، أن لا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) وقال (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وعن قتادة «أوف يا ابن آدم الكيل كما تحب أن يوفى لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك » وعن الفضيل : بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة ، وقال أعرابى لعبد الملك ابن مروان : قد سمعت ما قال الله تعالى فى المطففين ! أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم فى أخذ القليل ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ الكثير ، وتأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن .

قوله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾

اعلم أنه تعالى وبخ هؤلاء المطففين فقال (ألا يظن أولئك) الذين يطففون (أنهم مبعوثون ليوم عظيم) وهو يوم القيامة ، وفى الظن ههنا قولان (الأول) أن المراد منه العلم ، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يكون المخاطبون بهذا الخطاب من جملة المصدقين بالبعث ، ويحتمل أن لا يكونوا كذلك (أما الاحتمال الأول) فهو ما روى أن المسلمين من أهل المدينة وهم الأوس والخزرج كانوا كذلك ، وحين ورد النبى صلى الله عليه وسلم كان ذلك شائعاً فيهم ، وكانوا مصدقين بالبعث والنشور ، فلا جرم ذكروا به ، وأما إن قلنا بأن المخاطبين بهذه الآية ما كانوا مؤمنين بالبعث إلا أنهم كانوا متمكنين من الاستدلال عليه ، لما فى العقول من إيصال الجزاء إلى المحسن والمسيء ، أو

إمكان ذلك إن لم يثبت وجوبه ، وهذا مما يجوز أن يخاطب به من ينكر البعث ، والمعنى ألا يتفكرون حتى يعلموا أنهم مبعوثون ، لكنهم قد أعرضوا عن التفكر ، وأراحوا أنفسهم عن متاعبه ومشاقه ، وإنما يجعل العلم الاستدلال ظناً ، لأن أكثر العلوم الاستدلالية راجع إلى الأغلب فى الرأى ، ولم يكن كالشك الذى يعتدل الوجهان فيه لاجرم سمى ذلك ظناً (القول الثانى) أن المراد من الظن ههنا هو الظن نفسه لا العلم ، ويكون المعنى أن هؤلاء المطففين هب أنهم لا يجزمون بالبعث ولكن لا أقل من الظن ، فإن الأليق بحكمة الله ورحمته ورعايته مصالح خلقه أن لا يهمل أمرهم بعد الموت بالكلية ، وأن يكون لهم حشر ونشر ، وأن هذا الظن كاف فى حصول الخوف ، كأنه سبحانه وتعالى يقول هب أن هؤلاء لا يقطعون به أفلا يظنونه أيضاً ، فأما قوله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (يوم) بالنصب والجر ، أما النصب فقال الزجاج يوم منصوب بقوله (مبعوثون) والمعنى ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة ، وقال الفراء وقد يكون فى موضع خفض إلا أنه أضيف إلى يفعل فنصب ، وهذا كما ذكرنا فى قوله (يوم لا تملك) وأما الجر فلكونه بدلا من (يوم عظيم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا القيام له صفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ سببه وفيه وجوه (أحدها) وهو الأصح أن الناس يقومون لمحاسبة رب العالمين ، فيظهر هناك هذا التطفيف الذى يظن أنه حقير ، فيعرف هناك كثرته واجتماعه ، ويقرب منه قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) و(ثانيها) أنه سبحانه يرد الأرواح إلى أجسادها فتقوم تلك الأجساد من مراقدها ، فذاك هو المراد من قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) (وثالثها) قال أبو مسلم معنى (يقوم الناس) هو كقوله (وقوموا لله قانتين) أى لعبادته فقوله (يقوم الناس لرب العالمين) أى لمحض أمره وطاعته لا لشىء آخر ، على ما قرره فى قوله (والأمر يومئذ لله) .

﴿ الصفة الثانية ﴾ كيفية ذلك القيام ، روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال «يقوم أحدكم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه» وعن ابن عمر : أنه قرأ هذه السورة ، فلما بلغ قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) بكى نحيباً حتى عجز عن قراءة ما بعده » .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ كمية ذلك القيام ، روى عنه عليه السلام أنه قال « يقوم الناس مقدار ثلثمائة سنة من الدنيا لا يؤمر فيهم بأمر » وعن ابن مسعود « يمكثون أربعين عاماً ثم يخاطبون » وقال ابن عباس وهو فى حق المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة .

واعلم أنه سبحانه جمع فى هذه الآية أنواعاً من التهديد ، فقال أولا (ويل للمطففين) وهذه

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ
﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ
بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا
بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾

الكلمة تذكر عند نزول البلاء ، ثم قال ثانياً (ألا يظن أولئك) وهو استفهام بمعنى الإنكار ، ثم قال ثالثاً (ليوم عظيم) والشيء الذى يستعظمه الله لا شك أنه فى غاية العظمة ، ثم قال رابعاً (يوم يقوم الناس لرب العالمين) وفيه نوعان من التهديد (أحدهما) كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والانكسار (والثانى) أنه وصف نفسه بكونه رباً للعالمين ، ثم ههنا سؤال وهو كأنه قال قائل كيف يليق بك مع غاية عظمتك أى تهيء هذا المحفل العظيم الذى هو محفل القيامة لأجل الشيء الحقير الطفيف ؟ فكأنه سبحانه يجيب ، فيقول عظمة الإلهية لا تتم إلا بالعظمة فى القدرة والعظمة فى الحكمة ، فعظمة القدرة ظهرت بكونى رباً للعالمين ، لكن عظمة الحكمة لا تظهر إلا بأن أنتصف المظلوم من الظالم بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف ، فإن الشيء كلما كان أحقر وأصغر كان العلم الواصل إليه أعظم وأتم ، فلأجل إظهار العظمة فى الحكمة أحضرت خلق الأولين والآخرين فى محفل القيامة ، وحاسبت المطفف لأجل ذلك القدر الطفيف . وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : لفظ المطفف يتناول التطفيف فى الوزن والكيل ، وفى إظهار العيب واخفائه ، وفى طلب الإنصاف والانتصاف ، ويقال من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه ، فليس بمنصب والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة ، والذى يرى عيب الناس ، ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ، ومن طلب حق نفسه من الناس ، ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه ، فهو من هذه الجملة والفتى من يقضى حقوق الناس ولا يطلب من أحد لنفسه حقاً .

قوله تعالى : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ماسجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ،

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾

واعلم أنه سبحانه لما بين عظم هذا الذنب أتبعه بذكر لواحقه وأحكامه (فأولها) قوله (كلا) والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً (الاول) أنه ردع وتنبيه أى ليس الأمر على ماهم عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب فليرتدعوا ، وتمام الكلام ههنا (الثانى) قال أبو حاتم (كلا) ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً (إن كتاب الفجار لفى سجين) وهو قول الحسن .

﴿ النوع الثانى ﴾ أنه تعالى وصف كتاب الفجار بالخسة والحقارة على سبيل الاستخفاف بهم ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ السجين اسم علم لشىء معين أو اسم مشتق عن معنى ؟ قلنا فيه قولان :

﴿ الأول ﴾ وهو قول جمهور المفسرين ، أنه اسم علم على شىء معين ، ثم اختلفوا فيه ، فالأكثرون على أنه الأرض السابعة السفلى ، وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد ، وروى البراء أنه عليه السلام قال « سجين أسفل سبع أرضين » قال عطاء الخراسانى : وفيها إبليس وذريته ، وروى أبو هريرة أنه عليه السلام قال « سجين جب فى جهنم » وقال الكلبى ومجاهد : سجين صخرة تحت الأرض السابعة .

﴿ القول الثانى ﴾ أنه مشتق وسمى سجيناً فعيلا من السجن ، وهو الحبس والتضييق كما يقال فسيق من الفسق ، وهو قول أبى عبيدة والمبرد والزجاج ، قال الواحدى وهذا ضعيف والدليل على أن سجيناً ليس مما كانت العرب تعرفه قوله (وما أدراك ماسجين) أى ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت وقومك . ولا أقول هذا ضعيف ، فلعله إنما ذكر ذلك تعظيما لأمر سجين . كما فى قوله (وما أدراك ما يوم الدين) قال صاحب الكشاف : والصحيح أن السجين فعيل مأخوذ من السجن ، ثم إنه ههنا اسم علم منقول من صف كحاتم وهو منصرف ، لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف ، إذا عرفت هذا ، فنقول قد ذكرنا أن الله تعالى أجرى أموراً مع عباده على ماتعارفوه من التعامل فيما بينهم وبين عظمائهم . فالجنة موصوفة بالعلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين ، والسجين موصوف بالتسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين الملعونين ، ولا شك أن العلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين ، كل ذلك من صفات الكمال والعزة ، وأضدادها من صفات النقص والذلة ، فلما أريد وصف الكفرة وكتابهم بالذلة والحقارة ، قيل إنه فى موضع التسفل والظلمة والضيق ، وحضور الشياطين ، ولما وصف كتاب الأبرار بالعزة قيل إنه (فى عليين) . و (يشهده الملائكة المقربون) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه (فى سجين) ثم فسر سجيناً بـ(كتاب مرقوم) فكأنه قيل إن كتابهم فى كتاب مرقوم فما معناه ؟ أجاب القفال : فقال قوله (كتاب مرقوم) ليس تفسيراً لسجين ، بل التقدير : كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وإن كتاب الفجار كتاب مرقوم ، فيكون هذا وصفاً لكتاب الفجار بوصفين (أحدهما) أنه فى سجين (والثانى)أنه مرقوم ، ووقع قوله (وما أدراك ماسجين) فيما بين الوصفين معترضاً ، والله أعلم . والأولى أن يقال وأى استبعاد فى كون أحد الكتابين فى الآخر ، إما بأن يوضع كتاب الفجار فى الكتاب الذى هو الأصل المرجوع إلى فى تفصيل أحوال الأشقياء ، أو بأن ينقل مافى كتاب الفجار إلى ذلك الكتاب المسمى بالسجين ، وفيه (وجه ثالث) وهو أن يكون المراد من الكتاب ، الكتابة فيكون فى المعنى : كتابة الفجار فى سجين ، أى كتابة أعمالهم فى سجين ، ثم وصف السجين بأنه (كتاب مرقوم) فيه جميع أعمال الفجار .

﴿ السؤال الثالث ﴾ مامعنى قوله (كتاب مرقوم) ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) مرقوم أى مكتوبة أعمالهم فيه (وثانيها) قال قتادة : رقم لهم بسوء أى كتب لهم بإيجاب النار (وثالثها) قال القفال يحتمل أن يكون المراد أنه جعل ذلك الكتاب مرقوماً ، كما يرقم التاجر ثوبه علامة لقيمته ، فكذلك كتاب الفاجر جعل مرقوماً برقم دال على شقاوته (ورابعها) المرقوم : ههنا المختوم ، قال الواحدى ، وهو صحيح لأن الختم علامة ، فيجوز أن يسمى المرقوم مختوماً (وخامسها) أن المعنى كتاب مثبت عليهم كالرقم فى الثوب لاينمحى ، أما قوله (ويل يومئذ للمكذبين) ففيه وجهان (أحدهما) أنه متصل بقوله (يوم يقوم الناس) أى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ويل لمن كذب بأخبار الله (والثانى) أن قوله (مرقوم) معناه رقم برقم يدل على الشقاوة يوم القيامة ، ثم قال (ويل يومئذ للمكذبين) فى ذلك اليوم من ذلك الكتاب ، ثم إنه تعالى أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين فقال (وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) ومعناه أنه لا يكذب بيوم الدين إلا من كان موصوفاً بهذه الصفات الثلاثة (فأولها) كونه معتدياً ، والاعتداء هو التجاوز عن المنهج الحق (وثانيها) الأثيم وهو مبالغة فى ارتكاب الإثم والمعاصى . وأقول الإنسان له قوتان قوة نظرية وكمالها فى أن يعرف الحق لذاته ، وقوة عملية وكمالها فى أن يعرف الخير لأجل العمل به ، وضد الأول أن يصف الله تعالى بما لا يجوز وصفه به ، فان كل من منع من إمكان البعث والقيامة إنما منع إما لأنه لم يعلم تعلق علم الله بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات ، أو لأنه لم يعلم تعلق قدرة الله بجميع الممكنات . فهذا الاعتداء ضد القوة العملية ، هو الاشتغال بالشهوة والغضب وصاحبه هو الأثيم ، وذلك لأن المشتغل بالشهوة والغضب قلما يتفرغ للعبادة والطاعة ، وربما صار ذلك مانعاً له عن الإيمان بالقيامة .

﴿ وأما الصفة الثالثة ﴾ للمكذبين بيوم الدين فهو قوله (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير

الأولين) والمراد منه الذين ينكرون النبوة ، والمعنى إذا تلى عليه القرآن قال أساطير الأولين ، وفيه وجهان (أحدهما) أكاذيب الأولين (والثانى) أخبار الأولين وأنه عنهم أخذ أى يقدح فى كون القرآن من عند الله بهذا الطريق ، وههنا بحث آخر : وهو أن هذه الصفات الثلاثة هل المراد منها شخص معين أولا ؟ فيه قولان (الأول) وهو قول الكلبي أن المراد منه الوليد بن المغيرة ، وقال آخرون إنه النضر بن الحارث ، واحتج من قال إنه الوليد بأنه تعالى قال فى سورة ن (ولا تطع كل حلاف مهين ـ إلى قوله ـ معتد أثيم ـ إلى قوله ـ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) فقيل إنه الوليد بن المغيرة ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : وما يكذب بيوم الدين من قريش أو من قومك إلا كل معتد أثيم ، وهذا هو الشخص المعين (والقول الثانى) أنه عام فى حق جميع الموصوفين بهذه الصفات ، أما قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) فالمعنى ليس الأمر كما يقوله من أن ذلك أساطير الأولين ، بل أفعالهم الماضية صارت سبباً لحصول الرين فى قلوبهم ، ولأهل اللغة فى تفسير لفظة الرين وجوه ، ولأهل التفسير وجوه أخر ، أما أهل اللغة فقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها والخمر ترين على عقل السكران ، والموت يرين على الميت فيذهب به ، قال الليث ، ران النعاس والخمر فى الرأس إذا رسخ فيه ، وهو يريد رينا ، وريوناً ، ومن هذا حديث عمر فى أسيفع جهينة لما ركبه الدين «أصبح قد رين به» قال أبو زيد ، يقال رين بالرجل يران به ريناً إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه . قال أبو معاذ النحوى الرين أن يسود القلب من الذنوب والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين ، والأقفال أشد من الطبع ، وهو أن يقفل على القلب ، قال الزجاج : ران على قلوبهم بمعنى غطى على قلوبهم ، يقال ران على قلبه الذنب يرين ريناً أى غشيه ، والرين كالصدإ يغشى القلب ومثله الغين ، أما أهل التفسير ، فلهم وجوه : قال الحسن ، ومجاهد هو الذنب على الذنب ، حتى تحيط الذنوب بالقلب ، وتغشاه فيموت القلب ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال « إياكم والمحقرات من الذنوب ، فإن الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيماً ضخمة » وعن مجاهد القلب كالكف ، فإذا أذنب الذنب انقبض ، وإذا أذنب ذنباً آخر انقبض ثم يطبع عليه وهو الرين ، وقال آخرون كلما أذنب الإنسان حصلت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله ، وروى هذا مرفوعاً فى حديث أبى هريرة ، قلت لا شك أن تكرر الأفعال سبب لحصول ملكة نفسانية ، فإن من أراد تعلم الكتابة فكلما كان إتيانه بعمل الكتابة أكثر كان اقتداره على عمل الكتابة أتم ، إلى أن يصير بحيث يقدر على الإتيان بالكتابة من غير روية ولا فكرة ، فهذه الهيئة النفسانية ، لما تولدت من تلك الأعمال الكثيرة كان لكل واحد من تلك الأعمال أثر فى حصول تلك الهيئة النفسانية ، إذا عرفت هذا فنقول : إن الإنسان إذا واظب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب ، حصلت فى قلبه ملكة نفسانية على الإتيان بذلك الذنب ، ولا معنى للذنب إلا ما يشغلك بغير الله ، وكل ما يشغلك بغير الله فهو

ظلمة ، فإذن الذنوب كلها ظلمات وسواد ، ولكل واحد من الأعمال السالفة التي أورث مجموعها حصول تلك الملكة أثر في حصولها ، فذلك هو المراد من قولهم : كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب ، ولما كانت مراتب الملكات في الشدة والضعف مختلفة ، لاجرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة ، فبعضها يكون ريناً وبعضها طبعاً وبعضها أقفالا ، قال القاضي ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع ، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالا بعد حال متجرئين عليه وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع ، فاستمروا وصعب الأمر عليهم ، ولذلك بين أن علة الرين كسبهم ، ومعلوم إن إكثارهم من اكتساب الذنوب لايمنع من الإقلاع والتوبة ، وأقول قد بينا أن صدور الفعل حال استواء الداعي إلى الفعل ، والداعي إلى الترك محال لامتناع ترجيح الممكن من غير مرجح ، فبأن يكون ممتنعاً حال المرجوحية كان أولى ، ولما سلم القاضي أنهم صاروا بسبب الأفعال السالفة راجحاً ، فوجب أن يكون الإقلاع في هذه الحالة ممتنعاً ، وتمام الكلام قد تقدم مراراً في هذا الكتاب .

أما قوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فاعلم أنهم ذكروا في (كلا) وجوها (أحدها) قال صاحب الكشاف (كلا) ردع عن الكسب الرائن عن قلوبهم (وثانيها) قال القفال إن الله تعالى حكى في سائر السور عن هذا المعتدي الأثيم أنه كان يقول إن كانت الآخرة حقاً ، فإن الله تعالى يعطيه مالا وولداً ، ثم إنه تعالى كذبه في هذه المقالة فقال (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) وقال (وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) ولما كان هذا مما قد تردد ذكره في القرآن ترك الله ذكره ههنا وقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أي ليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة حسنى بل هم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (وثانيها) أن يكون ذلك تكريراً وتكون (كلا) هذه هي المذكورة في قوله (كلا بل ران) أما قوله (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فقد احتج الأصحاب على أن المؤمنين يرونه سبحانه قالوا ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة ، وفيه تقرير آخر وهو أنه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار ، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لايجوز حصوله في حق المؤمن ، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمن أجابت المعتزلة عن هذا من وجوه (أحدها) قال الجبائي المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون أي ممنوعون ، كما يقال في الفرائض : الإخوة يحجبون الأم على الثلث ، ومن ذلك يقال لمن يمنع عن الدخول هو حاجب ، لأنه يمنع من رؤيته (وثانيها) قال أبو مسلم (لمحجوبون) أي غير مقربين ، والحجاب الرد وهو ضد القبول ، والمعنى هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله وهو المراد من قوله تعالى (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم) ، (وثالثها) قال القاضي : الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية ، فإنه قد يقال : حجب فلان عن الأمير ، وإن كان قد رآه

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

من البعد ، وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال ، بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن وجدان رحمته تعالى (ورابعها) قال صاحب الكشاف : كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم (والجواب) لا شك أن من منع من رؤية شيء يقال انه حجب عنه ، وأيضاً من منع من الدخول على الأمير يقال إنه حجب عنه ، وأيضاً يقال الأم حجبت عن الثلث بسبب الإخوة ، وإذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة فى مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعاً للاشتراك فى اللفظ ، وذلك هو المنع . ففى الصورة الأولى حصل المنع من الرؤية ، وفى الثانية حصل المنع من الوصول إلى قربه ، وفى الثالثة : حصل المنع من استحقاق الثلث ، فيصير تقدير الآية :كلا إنهم عن ربهم يومئذ لممنوعون ، والمنع إنما يتحقق بالنسبة إلى ما يثبت للعبد بالنسبة إلى الله تعالى ، وهو إما العلم وإما الرؤية ، ولا يمكن حمله على العلم ، لأنه ثابت بالاتفاق للكفار ، فوجب حمله على الرؤية . أما صرفه إلى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل ، وكذا ما قاله صاحب الكشاف ترك للظاهر من غير دليل ، ثم الذى يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين . قال مقاتل : معنى الآية أنهم بعد العرض والحساب ، لا يرون ربهم ، والمؤمنون يرون ربهم ، وقال الكلبى : يقول إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون ، والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه ، وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية ، فقال لما حجب أعداءه فلم يروه لابد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه ، وعن الشافعى لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، أما قوله تعالى (ثم إنهم لصالوا الجحيم) فالمعنى لما صاروا محجوبين فى عرصة القيامة إما عن رؤية الله على قولنا ، أو عن رحمة الله وكرامته على قول المعتزلة ، فعند ذلك يؤمر بهم إلى النار ثم إذا دخلوا النار ، وبخوا بتكذيبهم بالبعث والجزاء ، فقيل لهم (هذا الذى كنتم به تكذبون) فى الدنيا ، والآن قد عاينتموه فذوقوه .

قوله تعالى : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ماعليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الفجار المطففين ، أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لا يطففون ، فقال (كلا) أى ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ومن أن كتاب الله أساطير الأولين . واعلم أن لأهل اللغة فى لفظ (عليين) أقوالا ، ولأهل التفسير أيضاً أقوالا ، أما أهل اللغة قال

أبو الفتح الموصلي (عليين) جمع علي وهو فعيل من العلو ، وقال الزجاج إعراب هذا الاسم كإعرب الجمع لأنه على لفظ الجمع ، كما تقول هذه قنسرون ورأيت قنسرين ، وأما المفسرون فروى عن ابن عباس أنها السماء الرابعة ، وفي رواية أخرى إنها السماء السابعة ، وقال قتادة ومقاتل هي قائمة العرش اليمنى فوق السماء السابعة ، وقال الضحاك هي سدرة المنتهى ، وقال الفراء يعني ارتفاعاً بعد ارتفاع لا غاية له ، وقال الزجاج أعلى الأمكنة ، وقال آخرون هي مراتب عالية محفوظة بالجلالة قد عظمها الله وأعلى شأنها ، وقال آخرون : عند كتاب أعمال الملائكة ، وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الأخير لأنه تعالى قال لرسوله (وما أدراك ما عليون) تنبيهاً له على أنه معلوم له ، وأنه سيعرفه ثم قال (كتاب مرقوم يشهده المقربون) فبين أن كتابهم في هذا الكتاب المرقوم الذي يشهده المقربون من الملائكة ، فكأنه تعالى كما وكلهم باللوح المحفوظ فكذلك يوكلهم بحفظ كتب الأبرار في جملة ذلك الكتاب الذي هو أم الكتاب على وجه الإعظام له ولا يمتنع أن الحفظة إذا صعدت بكتب الأبرار فإنهم يسلمونها إلى هؤلاء المقربين فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذي وكلوا بحفظه ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار ، فلذلك يحاسبون حساباً يسيراً ، لأن هؤلاء المقربين يشهدون لهم بما حفظوه من أعمالهم ، وإذا كان هذا الكتاب في السماء صح قول من تأول ذلك على أنه في السماء العالية ، فتتقارب الأقوال في ذلك ، وإذا كان الذي ذكرناه أولى .

واعلم أن المعتمد في تفسير هذه الآية ما بينا أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة ، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة ، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين ، وفي أضيق المواضع إذلال الفجار وتحقير شأنهم ، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين ، وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنهم ، وفي الآية وجه آخر ، وهو أن المراد من الكتاب الكتابة ، فيكون المعنى أن كتابة أعمال الأبرار في عليين ، ثم وصف عليين بأنه كتاب مرقوم فيه جميع أعمال الأبرار ، وهو قول أبي مسلم .

أما قوله تعالى (كتاب مرقوم) ففيه تأويلان (أحدهما) أن المراد بالكتاب المرقوم كتاب أعمالهم (والثاني) أنه كتاب موضوع في عليين كتب فيه ما أعد الله لهم من الكرامة والثواب ، واختلفوا في ذلك الكتاب ، فقال مقاتل : إن تلك الأشياء مكتوبة لهم في ساق العرش . وعن ابن عباس أنه مكتوب في لوح من زبرجد معلق تحت العرش . وقال آخرون : هو كتاب مرقوم بما يوجب سرورهم ، وذلك بالضد من رقم كتاب الفجار بما يسوءهم ، ويدل على هذا المعنى قوله (يشهده المقربون) يعني الملائكة الذي هم في عليين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب ، ومن قال إنه كتاب الأعمال ، قال يشهد ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين المقربون من الملائكة كرامة للمؤمن .

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما عظم كتابهم فى الآية المتقدمة عظم بهذه الآية منزلتهم ، فقال (إن الأبرار لفى نعيم) ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة (أولها) قوله (على الأرائك ينظرون) قال القفال : الأرائك الأسرة فى الحجال ، ولا تسمى أريكة فيما زعموا إلا إذا كانت كذلك ، وعن الحسن : كنا لاندرى ما الأريكة حتى لقينا رجلا من أهل اليمن أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك .

أما قوله (ينظرون) ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) ينظرون إلى أنواع نعمهم فى الجنة من الحور العين والولدان ، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها ، قال عليه السلام « يلحظ المؤمن فيحيط بكل ما آتاه الله وإن أدناهم يتراءى له مثل سعة الدنيا » (والثانى) قال مقاتل ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون فى النار (والثالث) إذا اشتهوا شيئاً نظروا إليه فيحضرهم ذلك الشىء فى الحال ، واعلم أن هذه الأوجه الثلاثة من باب أنواع جنس واحد وهو المنظور إليه ، فوجب حمل اللفظ على الكل ، ويخطر ببالى تفسير (رابع) وهو أشرف من الكل وهو أنهم ينظرون إلى ربهم ويتأكد هذا التأويل بما إنه قال بعد هذه الآية (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله تعالى على ما قال (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات ، وما هو إلا رؤية الله تعالى (وثانيها) قوله تعالى ﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعنى إذا رأيتهم عرفت أنهم أهل النعمة بسبب ماترى فى وجوههم من القرائن الدالة على ذلك ثم فى تلك القرائن قولان :

﴿ أحدهما ﴾ أنه ما يشاهد فى وجوههم من الضحك والاستبشار ، على ماقال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) .

﴿ والثانى ﴾ قال عطاء إن الله تعالى يزيد فى وجوههم من النور والحسن والبياض مالا يصفه واصف ، وتفسير النضرة : قد سبق عند قوله (ناضرة) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (تعرف) على البناء للمفعول (ونضرة النعيم) بالرفع .

﴿ وثالثها ﴾ قوله يسقون من رحيق) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى بيان أن الرحيق ما هو ؟ قال الليث (الرحيق) الخمر . وأنشد لحسان

بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقال أبو عبيدة والزجاج (الرحيق) من الخمر ما لاغش فيه ولا شىء يفسده ، ولعله هو الخمر الذى وصفه الله تعالى بقوله (لا فيها غول) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله تعالى لهذا (الرحيق) صفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (مختوم) وفيه وجوه : (الأول) قال القفال يحتمل أن هؤلاء يسقون من شراب مختوم قد ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ماجرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان ، وهناك خمر آخر تجرى منها أنهار كما قال (وأنهار من خمر لذة للشاربين) إلا أن هذا المختوم أشرف فى الجارى (الثانى) قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج المختوم الذى له ختام أى عاقبة (والثالث) روى عن عبد الله فى مختوم أنه ممزوج ، قال الواحدى : وليس بتفسير لأن الختم لايكون تفسيره المزج ، ولكن لما كانت له عاقبة هى ريح المسك فسره بالممزوج ، لأنه لولم يمتزج بالمسك لما حصل فيه ريح المسك (الرابع) قال مجاهد مختوم مطين ، قال الواحدى كان مراده من الختم بالطين ، هو أن لا تمسه يد إلى أن يفك ختمه الأبرار ، والأقرب من جميع هذه الوجوه الوجه الأول الذى ذكره القفال (الصفة الثانية) لهذا الرحيق قوله (ختامه مسك) وفيه وجوه (الأول) قال القفال : معناه أن الذى يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق هو المسك ، كالطين الذى يختم به رءوس القوارير ، فكان ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم ، وهذا الوجه مطابق للوجه الأول الذى حكيناه عن القفال فى تفسير قوله (مختوم) ، (الثانى) المراد من قوله (ختامه مسك) أى عاقبته المسك أى يختم له آخره بريح المسك ، وهذا الوجه مطابق للوجه الذى حكيناه عن أبى عبيدة فى تفسير قوله (مختوم) كأنه تعالى قال من رحيق له عاقبة ، ثم فسر تلك العاقبة فقال تلك العاقبة مسك أى من شربه كان ختم شربه على ريح المسك ، وهذا قول علقمة والضحاك وسعيد بن جبير ، ومقاتل وقتادة قالوا إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك ، والمعنى لذاذة المقطع وذكاء الرائحة وأرجها ، مع طيب الطعم ، والختام آخر كل شىء ، ومنه يقال ختمت القرآن ، والأعمال بخواتيمها ويؤكده قراءة على عليه السلام ، واختيار الكسائى فإنه يقرأ (خاتمه مسك) أى آخره كما يقال خاتم النبيين ، قال الفراء وهما متقاربان فى المعنى إلا أن الخاتم اسم والختام مصدر كقولهم هو كريم الطباع والطابع (الثالث) معناه خلطه مسك ، وذكروا أن فيه تطيباً لطعمه . وقيل بل لريحه ، وأقول لعل المراد أن الخمر الممزوج بهذه الأفاويه الحارة مما يعين على الهضم وتقوية

الشهوة ، فلعل المراد منه الإشارة إلى قوة شهوتهم وصحة أبدانهم ، وهذا القول رواه سعيد بن جبير عن الأسود عن عائشة تقول المرأة لقد أخذت ختم طيبي ، أي لقد أخذت أخلاط طيبي ، قال أبو الدرداء هو شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به آخر شربهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيب ريحه .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) قال الواحدي : يقال نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه ، والتنافس تفاعل منه كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به ، والمعنى : وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله .

واعلم أن مبالغة الله تعالى في الترغيب فيه تدل على علو شأنه ، وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله تعالى (ومزاجه من تسنيم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تسنيم علم لعين بعينها في الجنة سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه ، إما لأنها أرفع شراب في الجنة ، وإما لأنها تأتيهم من فوق ، على ماروي أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم ، وإما لأنها لأجل كثرة ملئها وسرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه ، أو لأنه عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض ، فهو التسنيم أيضاً ، وذلك لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع ، ومنه سنام البعير وتسنمت الحائط إذا علوته ، وأما قول المفسرين ، فروى ميمون بن مهران أن ابن عباس سأل عن تسنيم ، فقال هذا مما يقول الله (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) ويقرب منه ما قال الحسن وهو أنه أمر أخفاه الله تعالى لأهل الجنة قال الواحدي : وعلى هذا لا يعرف له اشتقاق وهو اسم معرفة ، وعن عكرمة (من تسنيم) من تشريف :

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى ذكر أن تسنيم عين يشرب بها المقربون ، قال ابن عباس أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم ، لأنه يشربه المقربون صرفاً ، ويمزج لأصحاب اليمين .

واعلم أن الله تعالى لما قسم المكلفين في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام : المقربون ، وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، ثم إنه تعالى لما ذكر كرامة المذكورين في هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون ؛ علمنا أن المذكورين في هذا الموضع هم أصحاب اليمين ، وأقول هذا يدل على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة ، فتسنيم أفضل أنهار الجنة ، والمقربون أفضل أهل الجنة ، والتسنيم في الجنة الروحانية هو معرفة الله ولذة النظر إلى وجه الله الكريم ، والرحيق هو الابتهاج بمطالعة عالم الموجودات ، فالمقربون لا يشربون إلا من التسنيم ، أي لا يشتغلون إلا بمطالعة وجهه الكريم ، وأصحاب اليمين يكون شرابهم ممزوجاً ، فتارة يكون نظرهم إليه وتارة إلى مخلوقاته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ عيناً نصب على المدح وقال الزجاج نصب على الحال ، وقوله (يشرب بها المقربون) كقوله (يشرب بها عباد الله) وقد مر .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ
قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ
ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء الضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرن ، هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون ﴾ اعلم أنه سبحانه لما وصف كرامة الأبرار فى الآخرة ذكر بعد ذلك قبح معاملة الكفار معهم فى الدنيا فى استهزائهم وضحكهم ، ثم بين أن ذلك سينقلب على الكفار فى الآخرة ، والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى سبب النزول وجهين (الأول) أن المراد من قوله (إن الذين أجرموا) أكابر المشركين كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل السهمى كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم (الثانى) جاء على عليه السلام فى نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه ، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل على إلى رسول الله ﷺ

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى حكى عنهم أربعة أشياء من المعاملات القبيحة (فأولها) قوله إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون أى يستهزئون بهم وبدينهم (وثانيها) قوله (وإذا مروا بهم يتغامزون) أى يتفاعلون من الغمز ، وهو الإشارة بالجفن والحاجب ويكون الغمز أيضاً بمعنى العيب وغمزه إذا عابه ، وما فى فلان غميزة أى مايعاب به ، والمعنى أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ويعيبونهم ، ويقولون انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم فى طلب ثواب لا يتيقنونه (وثالثها) قوله تعالى (وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين) معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا ، أو يتفكهون بذكر المسلمين بالسوء ، قرأ عاصم فى رواية حفص عنه (فكهين) بغير ألف فى هذا الموضع وحده ، وفى

سائر القرآن (فا كهين) بالألف وقرأ الباقون فا كهين بالألف ، فقيل هما لغتان ، وقيل فا كهين أى متنعمين مشغولين بما هم فيه من الكفر والتنعم بالدنيا وفكهين معجبين (ورابعها) قوله تعالى (وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) أى هم على ضلال فى تركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى هل له وجود أم لا ، وهذا آخر ما حكاه تعالى عن الكفار .

ثم قال تعالى (وما أرسلوا عليهم حافظين) يعنى أن الله تعالى لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين ، يحفظون عليهم أحوالهم ويتفقدون مايصنعونه من حق أو باطل ، فيعيبون عليهم ما يعتقدونه ضلالا ، بل إنما أمروا بإصلاح أنفسهم .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعنى أن فى هذا اليوم الذى هو يوم تصفح الأعمال والمحاسبة يضحك المؤمن من الكافر ، وفى سبب هذا الضحك وجوه (أحدها) أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين فى الدنيا بسبب ماهم فيه من الضر والبؤس ، وفى الآخرة يضحك المؤمنين على الكافرين بسبب ماهم فيه من أنواع العذاب والبلاء ، ولأنهم علموا أنهم كانوا فى الدنيا على غير شىء ، وأنهم قد باعوا باقياً بفان ويرون أنفسهم قدفازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد ، ودخلوا الجنة فأجلسوا على الأرائك ينظرون إليهم كيف يعذبون فى النار وكيف يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضاً (الثانى) قال أبو صالح يقال لأهل النار وهم فيها اخرجوا وتفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذاك هو سبب الضحك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (على الأرائك ينظرون) حال من يضحكون أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر .

ثم قال تعالى (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) ثوب بمعنى أثيب أى الله المثيب ، قال أوس :

سأجزيك أو يجزيك عنى مثوب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدى

قال المبرد : وهو فعل من الثواب ، وهو مايثوب أى يرجع إلى فاعله جزاء ماعمله من خير أو شر ، والثواب يستعمل فى المكافأة بالشر ، ونشد أبو عبيدة :

ألا أبلغ أبا حسن رسولا فما لك لاتجىء إلى الثواب

والأولى أن يحمل ذلك على سبيل التهكم كقوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) والمعنى كأنه تعالى يقول للمؤمنين : هل جازينا الكفار على عملهم الذى كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم ، كما جازينا كم على أعمالكم الصالحة ؟ فيكون هذا القول زائداً فى سرورهم ، لأنه يقتضى زيادة فى تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم ، والمقصود منها أحوال القيامة . والله أعلم .

٨٣ ــ سورة المطففين
(مكية وهى ست وثلاثون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٨٣ المطففين

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ ٨٣ المطففين

﴿ سورة المطففين مكية مختلف فيها وآيها ست وثلاثون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (ويل للطففين) قيل الويل شدة الشر وقيل العذاب الأليم وقيل هو واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره وقيل وقيل وأياً ما كان فهو مبتدأ وإن كان نكرة لوقوعه فى موقع الدعاء والتطفيف البخس فى الكيل والوزن لأن مايبخس شىء طفيف حقير وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكان أهلها من أخبث الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل وقيل قدمها عليه الصلاة والسلام وبها رجل يعرف بأبى جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر وقيل كان أهل المدينة تجاراً يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال خمس بخمس مانقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الموت ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر وقوله
٢ تعالى (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) الخ صفة كاشفة للطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذى استحقوا به الذم والدعاء بالويل أى إذا اكتالوا من الناس مكيلهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وافياً وافراً وتبديل كلمة على بمن لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء أو للإشارة إلى أنه اكتيال مضربهم لكن لا على اعتبار الضرر فى حيز الشرط الذى يتضمنه كلمة إذا لإخلاله بالمعنى بل فى نفس الأمر بموجب الجواب فإن المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً من غير نقص بل مجرد الأخذ الوافى الوافر حسبما أرادوا بأى وجه تيسر من وجوه الحيل وكانوا يفعلونه بكبس المكيل وتحريك المكيال والاحتيال فى ملئه وأما ماقيل من أن ذلك للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس فمع اقتضائه لعدم شمول الحكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شىء بطريق الشراء ونحوه مع أنه الشائع فيما بينهم يقتضى أن يكون معنى الاستيفاء أخذ مالهم عليهم وافياً من غير نقص إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق فى معرض الحق فلا يكون مداراً لذمهم والدعاء عليهم وحمل مالهم عليهم على معنى ماسيكون

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ٨٣ المطففين

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ ٨٣ المطففين

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ٨٣ المطففين

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ٨٣ المطففين

لهم عليهم مع كونه بعيداً جداً مما لايجدى نفعاً فإن اعتبار كون المكيل لهم حالا كان أوما لا يستدعى كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتما وهكذا حال مانقل عن الفراء من أن من وعلى تعتقبان فى هذا الموضع لأنه حق عليه فإذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ماعليك وإذا قال اكتلت منك فكقوله استوفيت منك فتأمل وقد جوز أن تكون على متعلقة بيستوفون ويكون تقديمها على الفعل لإفادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون لها وأنت خبير بأن القصر بتقديم الجار والمجرور إنما يكون فيما يمكن تعلق الفعل بغير المجرور أيضاً حسب تعلقه به فيقصد بالتقديم قصره عليه بطريق القلب أو الإفراد أو التعيين حسبما يقتضيه المقام ولا ريب فى أن الاستيفاء الذى هو عبارة عن الأخذ الوافى مما لايتصور أن يكون على أنفسهم حتى يقصد بتقديم الجار والمجرور قصره على الناس على أن الحديث واقع فى الفعل لافيما وقع عليه فتدبر والضمير البارز فى قوله تعالى

٣ (وإذا كالوهم أو وزنوهم) للناس أى إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ونحوه (يخسرون) أى ينقصون
يقال خسر الميزان وأخسره فحذف الجار وأوصل الفعل كما فى قوله [ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا] أى جنيت لك وجعل البارز تأكيداً للمستكن مما لايليق بجزالة التنزيل ولعل ذكر الكيل والوزن فى صورة الإخسار والاقتصار على الاكتيال فى صورة الاستيفاء لما أنهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان تمكنهم منه عند الكيل والوزن وعدم التعرض للكيل والموزون فى الصورتين لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم فى الأخذ والإعطاء لا فى خصوصية المأخوذ والمعطى وقوله

٤ تعالى (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون) استئناف وارد لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف والتعجيب
من اجترائهم عليه وأولئك إشارة إلى المطففين ووضعه موضع ضميرهم للإشعار بمناط الحكم الذى هو وصفهم فإن الإشارة إلى الشىء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه وأما الضمير فلا يتعرض لوصفه وللإيذان بأنهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز نازلون منزلة الأمور المشار إليها إشارة حسية وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم فى الشرارة والفساد أى ألا يظن أولئك

٥ الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنهم مبعوثون (ليوم عظيم) لايقادر قدر عظمه وعظم مافيه
ومحاسبون فيه على مقدار الذرة والخردلة فإن من يظن ذلك وإن كان ظناً ضعيفاً متاخماً للشك والوهم

٦ لايكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح فكيف بمن تيقنه وقوله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين)

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ٨٣ المطففين

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ٨٣ المطففين

كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ٨٣ المطففين

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٨٣ المطففين

ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ ٨٣ المطففين

وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ٨٣ المطففين

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ٨٣ المطففين

أى لحكمه وقضائه منصوب بإضمار أعنى وقيل بمبعوثون أو مرفوع المحل خبراً لمبتدأ مضمر أو مجرور
بدلا من يوم عظيم مبنى على الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعا كما هو رأى الكوفيين ويؤيد
الأخيرين القراءة بالرفع وبالجر وفى هذا الإنكار والتعجيب وإيراد الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام
الناس فيه كافة لله تعالى خاضعين ووصفه تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم
٧ فى التطفيف وأمثاله مالا يخفى (كلا) ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب
* وقوله تعالى (إن كتاب الفجار لفى سجين) الخ تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق
وسجين علم لكتاب جامع هو ديوان الشر دون فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من
الثقلين منقول من وصف كخاتم وأصله فعيل من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق
فى جهنم أو لأنه مطروح كما قيل تحت الأرض السابعة فى مكان مظلم وحش وهو مسكن إبليس وذريته
فالمعنى إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أى مايكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك
٨ الكتاب المدون فيه قبائح أعمال المذكورين وقوله تعالى (وما أدراك ماسجين) تهويل لأمره أى هو
٩ بحيث لا يبلغه دراية أحد وقوله تعالى (كتاب مرقوم) أى مسطور بين الكتابة أو معلم يعلم من رآه
١٠ أنه لا خير فيه وقيل هو اسم المكان والتقدير ما كتاب السجين أو محل كتاب مرقوم وقوله تعالى (ويل
يومئذ للمكذبين) متصل بقوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين وما بينهما اعتراض بقوله تعالى
١١ (الذين يكذبون بيوم الدين) إما مجرور على أنه صفة ذامة للمكذبين أو بدل منه أو مرفوع أو
١٢ منصوب على الذم (وما يكذب به إلا كل معتد) أى متجاوز عن حدود النظر والاعتبار غال فى التقليد
* حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه عن الإعادة مع مشاهدته للبدء (أثيم) أى منهمك فى الشهوات
١٣ المخدجة الفانية بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية وحملته على إنكارها (إذا تتلى عليه

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ٨٣ المطففين

كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ٨٣ المطففين

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ٨٣ المطففين

ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ٨٣ المطففين

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ٨٣ المطففين

آياتنا) الناطقة بذلك (قال) من فرط جهله وإعراضه عن الحق الذى لا محيد عنه (أساطير الأولين) *
أى هى حكايات الأولين قال الكلبي المراد بالمعتدى الإثيم هو الوليد بن المغيرة وقيل النضر بن الحرث
وقيل عام لكل من اتصف بالأوصاف المذكورة وقرىء إذا يتلى بتذكير الفعل وقرىء أإذا تتلى على
١٤ الاستفهام الإنكارى (كلا) ردع للمعتدى الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه وقوله تعالى
* (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) بيان لما أدى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة أى ليس فى آياتنا
ما يصح أن يقال فى شأنها مثل هذه المقالات الباطلة بل ركب على قلوبهم وغلب عليها ما كانوا يكسبونها
من الكفر والمعاصى حتى صارت كالصدأ فى المرآة فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق كما قال صلى الله
عليه وسلم إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه ولذلك قالوا ما قالوا
والرين الصدأ يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا ويقال ران فيه النوم أى رسخ فيه وقرىء
١٥ بإدغام اللام فى الراء (كلا) ردع وزجر عن الكسب الرائن (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فلا
يكادون يرونه بخلاف المؤمنين وقيل هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك
١٦ وعن ابن عباس وقتادة وابن أبى مليكة محجوبون عن رحمته وعن ابن كيسان عن كرامته (ثم إنهم
لصالوا الجحيم) أى داخلو النار وثم لتراخى الرتبة فإن صلى الجحيم أشد من الإهانة والحرمان من الرحمة
١٧ والكرامة (ثم يقال) لهم توبيخاً وتقريعاً من جهة الزبانية (هذا الذى كنتم به تكذبون) فذوقوا
١٨ عذابه (كلا) ردع عما كانوا عليه بعد ردع زجر إثر زجر وقوله تعالى (إن كتاب الأبرار لفى عليين)
استئناف مسوق لبيان محل كتاب الأبرار بعده بيان سوء حال الفجار متصلا ببيان سوء حال كتابهم
وفيه تأكيد للردع ووجوب الارتداع وكتابهم ما كتب من أعمالهم وعليون علم لديوان الخير الذى
دون فيه كل ما أعملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع على فعيل من العلو سمى بذلك إما لأنه
سبب الارتفاع إلى أعالى الدرجات فى الجنة وإما لأنه مرفوع فى السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون
تكريماً له وتعظيما والكلام فى قوله تعالى :

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ ٨٣ المطففين

كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ ٨٣ المطففين

يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ٨٣ المطففين

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ٨٣ المطففين

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ٨٣ المطففين

تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ٨٣ المطففين

يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ ٨٣ المطففين

خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ٨٣ المطففين

١٩،٢٠،٢١ (وما أدراك ماعليون) (كتاب مرقوم) كما مر فى نظيره وقوله تعالى (يشهده المقربون) صفة
٢٢ أخرى لكتاب أى يحضرونه ويحفظونه أو يشهدون بما فيه يوم القيامة (إن الأبرار لفى نعيم) شروع
٢٣ فى بيان محاسن أحوالهم إثر بيان حال كتابهم على طريقة مامر فى شأن الفجار (على الأرائك) أى
* على الأسرة فى الحجال ولا يكاد تطلق الأريكة على السرير عندهم إلا عند كونه فى الحجلة (ينظرون)
أى إلى ماشاؤا مد أعينهم إليه من رغائب مناظر الجنة وإلى ما أولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة
٢٤ وإلى أعدائهم يعذبون فى النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك (تعرف فى وجوههم نضرة
النعيم) أى بهجة التنعم وماءه ورونقه والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب للإيذان بأن مالهم
٢٥ من آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لايختص برؤيته راء دون راء (يسقون من رحيق) شراب
٢٦ خالص لاغش فيه (مختوم) (ختامه مسك) أى مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين ولعله
تمثيل لكمال نفاسته وقيل ختامه مسك أى مقطعه رائحة مسك وقرىء خاتمه بفتح التاء وكسرها أى
* مايختم به ويقطع (وفى ذلك) إشارة إلى الرحيق وهو الأنسب لما بعده أو إلى ماذكر من أحوالهم
وما فيه من معنى البعد إما للإشعار بعلو مرتبته وبعد منزلته أو لكونه فى الجنة أى فى ذلك خاصة
* دون غيره (فليتنافس المتنافسون) أى فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى وقيل فليعمل
العاملون كقوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وقيل فليستبق المستبقون وأصل التنافس التغالب فى
الشىء النفيس وأصله من النفس لعزتها قال الواحدى نفست الشىء أنفسه نفاسة والتنافس تفاعل منه
كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به وقال البغوى وأصله من الشىء النفيس الذى يحرص

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ٨٣ المطففين

عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ٨٣ المطففين

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ٨٣ المطففين

وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ٨٣ المطففين

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ٨٣ المطففين

وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ٨٣ المطففين

وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ٨٣ المطففين

عليه نفوس الناس ويزيده كل أحد لنفسه وينفس به على غيره أى يضن به (ومزاجه من تسنيم) عطف ٢٧
على ختامه صفة أخرى لرحيق مثله وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته أى مايمزج به على الرحيق من
ماء تسنيم على أن من بيانية أو تبعيضية أو من نفسه على أنها ابتدائية والتسنيم علم لعين بعينها سميت به
إما لأنها أرفع شراب فى الجنة وإما لأنها تأتيهم من فوق . روى أنها تجرى فى الهواء متسنمة فتصب
فى أوانيهم (عيناً) نصب على الاختصاص وجواز أن يكون حالا من تسنيم مع كونه جامداً لاتصافه ٢٨
بقوله تعالى (يشرب بها المقربون) فإنهم يشربونها صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة فالباء مزيدة أو بمعنى *
من وقوله تعالى (إن الذين أجرموا) الخ حكاية لبعض قبائح مشركى قريش جىء بها تمهيداً لذكر بعض ٢٩
أحوال الأبرار فى الجنة (كانوا) فى الدنيا (من الذين آمنوا يضحكون) أى يستهزئون بفقرائهم *
كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين وتقديم الجار والمجرور إما للقصر إشعاراً
بغاية شناعة مافعلوا أى كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على منهاج
قوله تعالى أفى الله شك أولمراعاة الفواصل (وإذا مروا) أى فقراء المؤمنين (بهم) أى بالمشركين ٣٠
وهم فى أنديتهم وهو الأظهر وإن جاز العكس أيضاً (يتغامزون) أى يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون *
بأعينهم (وإذا انقلبوا) من مجالسهم (إلى أهلهم انقلبوا فكهين) ملتذين بذكرهم بالسوء والسخرية ٣١
منهم وفيه إشارة إلى أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بمرأى من المارين بهم ويكتفون حينئذ بالتغامز
وقرىء فاكهين قيل هما بمعنى وقيل فكهين أشرين وقيل فرحين وفاكهين متفكهين وقيل ناعمين
وقيل مازحين (وإذا رأوهم) أينما كانوا (قالوا إن هؤلاء لضالون) أى نسبوا المسلمين ممن رآوهم ٣٢
ومن غيرهم إلى الضلال بطريق التأكيد (وما أرسلوا عليهم) على المسلمين (حافظين) حال من واو ٣٣

فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ٨٣ المطففين

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ٨٣ المطففين

هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ٨٣ المطففين

قالوا أى قالوا ذلك والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون
على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترؤا عليه من القول من
وظائف من أرسل من جهته تعالى وقد جوز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين كأنهم قالوا إن هؤلاء
لضالون وما أرسلوا علينا حافظين إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وإنما قيل عليهم
٣٤ نقلا له بالمعنى كما فى قولك حلف ليفعلن لا بالعبارة كما فى قولك حلف لأفعلن (فاليوم الذين آمنوا)
* أى المعهودون من الفقراء (من الكفار) أى من المعهودين وهو الأظهر وإن أمكن التنعيم من الجانبين
* (يضحكون) حين يرونهم أذلاء مغلولين قد غشيهم فنون الهوان والصغار بعد العزة والكبر ورهقهم
ألوان العذاب بعد التنعم والترفه وتقديم الجار والمجرور للقصر تحقيقاً للمقابلة أى فاليوم هم من
٣٥ الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا وقوله تعالى (على الأرائك ينظرون)
حال من فاعل يضحكون أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من سوء الحال وقيل يفتح
للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم اخرجوا إليها فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم يفعل بهم ذلك مراراً
٣٦ ويضحك المؤمنون منهم ويأباه قوله تعالى (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) فإنه صريح فى أن
ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم فى الدنيا فلابد من المجانسة والمشاكلة حتما والتثويب والإثابة
المجازاة وقرىء بإدغام اللام فى الثاء . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى
يوم القيامة من الرحيق المختوم .

سورة التطفيف

ويقال لها سورة المطففين واختلف في كونها مكية أو مدنية فعن ابن مسعود والضحاك انها مكية وعن الحسن وعكرمة انها مدنية وعليه السدى قال كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالاوفى ويعطى بالانقص فنزلت وعن ابن عباس روايات فأخرج ابن الضريس عنه أنه قال آخر ما نزل بمكة سورة المطففين وأخرج ابن مردويه والبيهقى عنه انه قال أول ما نزل بالمدينة ويل للمطففين ويؤيد هذه الرواية ما أخرجه النسائى وابن ماجه والبيهقى في شعب الايمان بسند صحيح وغيرهم عنه قال لما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة كانوا من اخبث الناس كيلا فانزل الله تعالى ويل للمطففين فاحسنوا الكيل بعد ذلك وفي رواية عنه أيضا وعن قتادة انها مكية الاثمان آيات من آخرها ان الذين أجرموا الخ وقيل انها مدنية الاست آيات من أولها وبعض من يثبت الواسطة بين المكى والمدنى يقول انها ليست أحدهما بل نزلت بين مكة والمدينة ليصلح الله تعالى أمر أهل المدينة قبل ورود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم وآيها ست وثلاثون بلاخلاف والمناسبة بينها وبين ماقبلها انه سبحانه لماذكر فيما قبل السعداء والاشقياء ويوم الجزاء وعظم شأنه ذكر عز وجل هنا ما أعد جل وعلا لبعض العصاة وذكره سبحانه بأخس مايقع من المعصية وهو التطفيف الذى لايكاد يجدى شيئاً فى تثمير المال وتنميته مع اشتمال هذه السورة من شرح حال المكذبين المذكورين هناك على زيادة تفصيل كما لا يخفى وقال الجلال السيوطى الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التى هي نظيرتها من أوجه لنكتة لطيفة ألهمنيها الله تعالى وذلك ان السور الاربع هذه والسورتان قبلها والانشقاق لما كانت فى صفة حال يوم القيامة ذكرت على ترتيب مايقع فيه فغالب ماوقع في التكوير وجميع ماوقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساة الاهوال فذكر في هذه السورة بقوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى فتنشر الصحف فآخذ باليمين وآخذ بالشمال وآخذ من وراء ظهره ثم بعد ذلك يقع الحساب كما ورد بذلك الآثار فناسب تأخر سورة الانشقاق التى فيها ايتاء الكتب والحساب عن السورة التى فيها ذكر الموقف والسورة التى فيها ذكره عن السورة التى فيها ذكر مبادى أحوال اليوم ووجه آخر وهو أنه جل جلاله لما قال في الانفطار وان عليكم لحافظين كراما كاتبين وذلك في الدنيا ذكر سبحانه في هذه حال ما يكتبه الحافظون وهو مرقوم يجعل في عليين أو سجين وذلك أيضا في الدنيا كما تدل عليه الآثار فهذه حالة ثانية للكتاب ذكرت في السورة الثانية وله حالة ثالثة متأخرة عنهما وهي ايتاؤه صاحبه باليمين أو غيرها وذلك يوم القيامة فناسب تأخير السورة التى فيها ذلك عن السورة التى فيها الحالة الثانية انتهى وهو وان لم يخل عن لطافة للبحث فيه مجال فتذكر

﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ قيل الويل شدة الشر وقيل الحزن والهلاك وقيل العذاب الاليم وقيل جبل في جهنم وأخرج ذلك عن عثمان مرفوعا ابن جرير بسند فيه نظر وذهب كثير الى أنه واد في جهنم فقد أخرج الامام أحمد والترمذى عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره وفي صحيحى ابن حبان والحاكم بلفظ واد بين جبلين يهوى فيه الكافر الخ وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله انه واد في جهنم من قيح وفي كتاب المفردات للراغب قال الاصمعى ويل قبوح وقد يستعمل للتحسر ومن قال ويل واد في جهنم لم يرد أن ويلا في اللغة موضوع لهذا وانما أراد من قال الله تعالى فيه ذلك فقد استحق مقرا من النار وثبت ذلك له انتهى والظاهر ان اطلاقه على ذلك كاطلاق جهنم على ما هو المعروف فيها فلينظر من أى نوع ذلك الاطلاق وأياما كان فهو مبتدا وان كان نكرة لوقوعه في موقع الدعاء وللمطففين خبره والتطفيف البخس في الكيل والوزن لما أن مايبخس في كيل أووزن واحد شيء طفيف أى نزر حقير والتفعيل فيه للتعدية أو للتكثير ولا ينافي كونه من الطفيف بالمعنى المذكور لان كثرة الفعل بكثرة وقوعه وهو بتكراره لا بكثرة متعلقه وعن الزجاج انه من طف الشيء جانبه وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ الخ صفة مخصصة للمطففين الذين نزلت فيهم الآية أوصفة كاشفة لحالهم شارحة لكيفية تطفيفهم الذى استحقوا به الويل أى اذا اخذوا من الناس ماأخذوا بحكم الشراء ونحوه كيلا يأخذونه وافيا وافرا وتبديل كلمة على هنا بمن قيل لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء أو للاشارة الى انه اكتيال مضر للناس لا على اعتبار الضرر من حيث الشرط الذى يتضمنه اذا لا خلاله بالمعنى بل في نفس الامر بموجب الجواب بناء على ان المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافيا من غير نقص بل مجرد الاخذ الوافي الوافر حسبما أرادوا بأى وجه يتيسر من وجوه الحيل وكانوا يفعلونه بكبس المكيل ودعدعة المكيال الى غير ذلك وقيل ان ذلك لاعتبار أن اكتيالهم لمالهم من الحق على الناس فمن الفراء ان من وعلى يعتقبان في هذا الموضع فيقال اكتلت عليه أى أخذت ماعليه كيلا واكتلت منه أى استوفيت منه كيلا وتعقب بانه مع اقتضائه لعدم شمول الحكم لاكتيالهم قبل ان يكون لهم على الناس شيء بطريق الشراء ونحوه مع انه الشائع فيما بينهم يقتضى ان يكون معنى الاستيفاء أخذ مالهم على الناس وافيا من غير نقص اذ هو المتبادر منه عند الاطلاق في معرض الحق فلا يكون مدارا لذمهم والدعاء عليهم وحمل مالهم عليهم على معنى ماسيكون لهم عليهم مع كونه بعيدا جدا مما لايجدى نفعا فان اعتبار كون المكيل لهم حالا كان أو مآلا يستدعى كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتما انتهى (وأقول) ان قطع النظر عن كون الآية نازلة في مطففين صفتهم أخذ مكيل الناس اذا كتالوا وافرا حسبما يريدون فلا بأس بحملها على مايدل على أن المأخوذ حق حالا أومآلا وكون المتبادر حينئذ من الاستيفاء أخذ مالهم وافيا من غير نقص مسلم لكنه لايضر قوله فلا يكون مدارا لذمهم والدعاء عليهم قلنا مدار الذم ماتضمنه مجموع المتعاطفين والكلام كقولك فلان يأخذ حقه من الناس تاما ويعطيهم حقهم ناقصا وهي عبارة شائعة في الذم بل الذم بها اشد من الذم بنحو يأخذ ناقصا ويعطى ناقصا وكونه دون الذم بنحو قولك يأخذ زائدا ويعطى ناقصا لايضر كما لايخفى ثم قد يقال ان الاغلب في اكتيال الشخص من شخص كون المكيل حقا له بوجه من الوجوه ولعل مبنى كلام الفراء على ذلك فتأمل وجوز على أن تكون على متعلقة بيستوفون ويكون تقديمها على الفعل لافادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة فاما أنفسهم فيستوفون لها وتعقب بأن القصر بتقديم الجار والمجرور انما يكون فيما يمكن تعلق الفعل بغير المجرور أيضا حسب تعلقه به فيقصد

بالتقديم قصره عليه بطريق القلب أوالافراد أوالتعيين حسبما يقتضيه المقام ولا ريب في أن الاستيفاء الذى هو عبارة عن الأخذ الوافى مما لايتصوران يكون على أنفسهم حتى يقصد بتقديم الجار والمجرور قصره على الناس على أن الحديث واقع فى الفعل لافيما وقع عليه انتهى وأجيب بان المراد بالاستيفاء المعدى بعلى على ذلك الاضرار فكأنه قيل اذا اكتالوا يضرون الناس خاصة ولايضرون أنفسهم بل ينفعونها والقصر بطريق القلب والاضرار مما يمكن أن يكون لانفسهم كما يمكن أن يكون للناس وان كان مابه الاضرار مختلفاً حيث أن اضرارهم أنفسهم باخذ الناقص واضرارهم الناس باخذ الزائد ثم أن خصوصية ماوقع عليه الفعل هو مدار الذم والدعاء بالويل وبه يجاب عما في حيز الملاوة انتهى ولا يخفى مافيه فتدبر والضمير المنفصل فى قوله تعالى ﴿وإذا كالوهُمْ أوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ للناس وما تقدم في الاخذ من الناس وهذا في الاعطاء فالمعنى واذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ينقصون وكال تستعمل مع المكيل باللام وبدونه فقد جاء في اللغة على ما قيل كال له وكاله بمعنى كال له وجعل غير واحد كاله من باب الحذف والايصال على ان الاصل كال له فحذف الجار وأوصل الفعل كما فى قوله

ولقد جنيتك اكمؤا وعساقلا ✡ ولقد نهيتك عن بنات الاوبر

وقولهم فى المثل الحريص يصيدك لاالجواد أى جنيت لك ويصيد لك وجوز أن يكون الكلام على حذف المضاف وهو مكيل وموزون (١) واقامة المضاف مقامه والاصل واذا كالوا مكيلهم أو وزنوهم وعن عيسى بن عمر وحمزة ان المكيل له والموزون له محذوف وهم ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع وهو الواو وكانا يقفان على الواوين وقيفة يبينان بها ما ارادوا وقال الزمخشرى لايصح كون الضمير مرفوعا للمطففين لانه يكون المعنى عليه اذا أخذوا من الناس استوفوا واذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص اخسروا وهو كلام متنافر لان الحديث واقع في الفعل لا في المباشر وذلك على ما في الكشف لان التاكيد اللفظى يدفعه المقام فليس المراد ان يحقق ان الكيل صدر منهم لا من عبيدهم مثلا والتقوى وحده يدفعه ترك الفاء في جواب اذا لان الفصيح اذ ذاك فهم يخسرون فيتعين الحمل على التخصيص ويظهر العذر في ترك الفاء اذا المعنى لايخسر الاهم ويلزم التنافر وفوات المقابلة هذا وهم أولا في كالوهم مانع من هذا التقدير اشد المنع والحمل على حذف الخبر من احدهما وهو شطر الجزاء لانظير له وقيل انه يبعد كون الضمير مرفوعا عدم اثبات الالف بعد الواو وقد تقرر في علم الخط اثباتها بعدها في مثل ذلك وجرى عليه رسم المصحف العثمانى في نظائره وكونه هنا بالخصوص مخالفا لما تقرر ولما سلك في النظائر بعيد كما لايخفى ولعل الاقتصار على الاكتيال في صورة الاستيفاء وذكر الكيل والوزن في صورة الاخسار ان المطففين كانوا لايأخذون مايكال ويوزن الا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة واذا أعطوا كالوا ووزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعا والحاصل انه انما جاء النظم الجليل هكذا ليطابق من نزل فيهم فالصفة تنعى عليهم ما كانوا عليه من زيادة البخس والظلم وهذا صحيح جعلت الصفة مخصصة لهؤلاء المطففين كما هو الاظهر أو كاشفة لحالهم فقد أريد بالاول معهود ذهنى وقال شيخ مشايخنا العلامة السيد صبغة الله الحيدرى في ذلك ان التطفيف في الكيل يكون بشىء قليل لا يعبأ به في الاغلب دون التطفيف في الوزن فان أدنى حيلة فيه يفضى الى شىء كثير وأيضا الغالب فيما يوزن ماهو أكثر قيمة مما يكال فاذا اخبرت الآية بانهم لايبقون على الناس ماهو قليل مهين من حقوقهم علم انهم لا يبقون عليهم الكثير الذى لايتسامح به أكثر الناس بل أهل المروآت أيضا الا نادرا بالطريق الاولى بخلاف ما اذا

(١) قوله واقامة المضاف إلى قوله أو وزنوهم هكذا بخط المؤلف ولعل فيه سقطا من قلمه اه

ذكر انهم يخسرون الناس بالاشياء الجزئية كما يفهم من ذكر الاخسار في الكيل فانه لايسلم منه انهم يخسرونهم بالشيء الكثير أيضا بل ربما يتوهم من تخصيص الجزئية بالذكر انهم لايتجرؤن على اخسارهم بكليات الاموال فلا بد في الشق الثاني من ذكر الاخسار في الوزن أيضا فتكون الآية منادية على ذميم أفعالهم ناعية عليهم بشنيع أحوالهم انتهى وتعقب بانه لايحسم السؤال لجوازان يقال لم لم يقل اذا كتالوا على الناس يستوفون واذا وزنوهم يخسرون ليعلم من القرينتين انهم يستوفون الكثير ويخسرون بالنزر الحقير بالطريق الاولى ويكون في الكلام ماهو من قبيل الاحتباك وقال الزجاج المعنى اذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل وكذلك اذا اتزنوا استوفوا الوزن ولم يذكر اذا اتزنوا لان الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يكال ويوزن ومراده على مانص عليه الطيبي انه استغنى بذكر احدى القرينتين عن الاخرى لدلالة القرينة الآتية عليها وهو كما ترى وقيل ان المطففين باعة وهم في الغالب يشترون الشيء الكثير دفعة ثم يبيعونه متفرقا في دفعات وكم قدرأينا منهم من يشتري من الزراعين مقدارا كثيراً من الحبوب مثلا في يوم واحد فيدخره ثم يبيعه شيئاً فشيئاً في أيام عديدة ولما كانت العادة الغالبة أخذ الكثير بالكيل ذكر الاكتيال فقط في صورة الاستيفاء ولما كان مايبيعونه مختلفا كثرة وقلة ذكر الكيل والوزن في صورة الاعطاء أولما كان اختيار مابه تعيين المقدار مفوضا الى رأى من يشترى منهم ذكرا معا في تلك الصورة اذ منهم من يختار الكيل ومنهم من يختار الوزن وأنت تعلم ان كون العادة الغالبة أخذ الكثير في الكيل غير مسلم على الاطلاق ولعله في بعض المواضع دون بعض وأهل بلدنا مدينة السلام اليوم لايكتالون ولا يكيلون أصلا وانما عادتهم الوزن والاتزان مطلقاً وعدم التعرض للمكيل والموزون في الصورتين على ماقال غير واحد لان مساق الكلام لبيان سوء معاملة المطففين في الأخذ والاعطاء لافي خصوصية المأخوذ والمعطى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ استئناف وارد لتهويل ماارتكبوه من التطفيف والهمزة للانكار والتعجيب ولا نافية فليست ألا هذه الاستفتاحية أو التنبيهية بل مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية والظن على معناه المعروف وأولئك اشارة الى المطففين ووضعه موضع ضميرهم للاشعار بمناط الحكم الذى هو وصفهم فان الاشارة الى الشيء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه وأما الضمير فلا يتعرض للوصف وللايذان بانهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز نازلون منزلة الامور المشار اليها اشارة حسية وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم في الشرارة والفساد أى ألا يظن أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل انهم مبعوثون ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لايقادر قدر عظمه فان من يظن ذلك وان كان ظناضعيفاً لايكاد يتجاسر على أمثال هذه القبائح فكيف بمن يتيقنه ووصف اليوم بالعظم لعظم مافيه كما أن جعله علة للبعث باعتبار مافيه وقدر بعضهم مضافا أى لحساب يوم وقيل الظن هنا بمعنى اليقين والاول أولى وأبلغ وعن الزمخشرى انه سبحانه جعلهم اسوأ حالا من الكفار لانه أثبت جل شأنه للكفار ظنا حيث حكى سبحانه عنهم إن نظن الاظنا ولم يثبته عزوجل لهم والمراد أنه تعالى نزلهم منزلة من لا يظن ليصح الانكار وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى لحكمه تعالى وقضائه عز وجل منصوب باضمار أعنى وجوز أن يكون معمولا لمبعوثون أو مرفوع المحل خبراً لمبتدا مضمر أى هو أو ذلك يوم أو مجرور كما قال الفراء بدلا من يوم عظيم وهو على الوجهين مبنى على الفتح لاضافته الى الفعل وان كان مضارعا كما هو رأى الكوفيين وقد مر غير مرة ويؤيد الوجهين قراءة زيد بن على يوم بالرفع وقراءة بعضهم كما حكى أبو معاذ يوم بالجر وفى هذا الانكار والتعجيب وايراد الظن والاتيان باسم الاشارة ووصف يوم قيامهم بالعظمة وابدال يوم يقوم الخ منه على القول به ووصفه

تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم في التطفيف مالا يخفى وليس ذلك نظرا الى التطفيف من حيث هو تطفيف بل من حيث ان الميزان قانون العدل الذى قامت به السموات والارض فيهم الحكم التطفيف على الوجه الواقع من أولئك المطففين وغيره وصح من رواية الحاكم والطبرانى وغيرهما عن ابن عباس وغيره مرفوعا خمس بخمس قيل يارسول الله وما خمس بخمس قال مانقض قوم العهد الا سلط الله تعالى عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله تعالى الا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة الا فشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل الا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم القطر وعن ابن عمر انه كان يمر بالبائع فيقول اتق الله تعالى وأوف الكيل فان المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى ان العرق ليلجمهم وعن عكرمة اشهد ان كل كيال ووزان فى النار فقيل له ان ابنك كيال ووزان فقال اشهد انه فى النار وكأنه أراد المبالغة لما علم ان الغالب فيهم التطفيف ومن هذا القبيل ماروى عن أبى رضى الله تعالى عنه لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤس المكاييل وألسن الموازين والله تعالى أعلم. واستدل بقوله تعالى يوم يقوم الخ على منع القيام للناس لاختصاصه بالله تعالى وأجاب عنه الجلال السيوطى بانه خاص بالقيام للمرء بين يديه أما القيام له اذا قدم ثم الجلوس فلا وانت تعلم ان الآية بمعزل عن ان يستدل بها على ما ذكر ليحتاج الى هذا الجواب وأرى الاستدلال بها على ذلك من العجب العجاب وقوله تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ الخ تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق وكتاب قيل بمعنى مكتوب أى مايكتب من أعمال الفجار لفى الخ وقيل مصدر بمعنى الكتابة وفي الكلام مضاف مقدر أى كتابة عمل الفجار لفى الخ والمراد بالفجار هنا على ماقال أبو حيان الكفار وعلى ما قال غير واحد ما يعمهم والفسقة فيدخل فيهم المطففون وسجين قيل صفة كسكير واختار غير واحد أنه علم لكتاب جامع وهو ديوان الشر دون فيه أعمال الفجرة من الثقلين كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ فان الظاهر ان كتاب بدل من سجين أو خبر مبتدا محذوف هو ضمير راجع اليه أى هو كتاب وأصله وصف من السجن بفتح السين لقب به الكتاب لانه سبب الحبس فهو في الاصل فعيل بمعنى فاعل أو لانه ملقى كما قيل تحت الارضين في مكان وحش كانه مسجون فهو بمعنى مفعول ولا يلزم على جعله علما لما ذكر كون الكتاب ظرفا للكتاب لما سمعت من تفسير كتاب الفجار وعليه يكون الكتاب المذكور ظرفا للعمل المكتوب فيه أو ظرفا للكتابة وقيل الكتاب على ظاهره والكلام نظير أن تقول ان كتاب حساب القرية الفلانية في الدستور الفلانى لما يشتمل على حسابها وحساب أمثالها فى أن ظرفية فيه من ظرفية الكل للجزء وعن الامام لا استبعاد في أن يوضع أحدهما في الآخر حقيقة أو ينقل مافي أحدهما للآخر وعن أبى على أن قوله تعالى كتاب مرقوم أى موضع كتاب فكتاب على ظاهره وسجين موضع عنده ويؤيده ماأخرجه ابن جرير عن أبى هريرة مرفوعاً أن الفلق جب في جهنم مغطى وسجين جب فيها مفتوح وعليه يكون سجين لشر موضع في جهنم وجاء في عدة آثار أنه موضع تحت الأرض السابعة ولا منافاة بين ذلك وبين الخبر المذكور بناء على القول بان جهنم تحت الأرض وفي الكشف لا يبعد أن يكون سجين علم الكتاب وعلم الموضع أيضاً جمعاً بين ظاهر الآية وظواهر الاخبار وبعض من ذهب الى أنه في الآية علم الموضع قال وما أدراك سجين على حذف مضاف أى وما أدراك ما كتاب سجين وقال ابن عطية من قال بذلك فكتاب عنده مرفوع على أنه خبر ان والظرف الذى هو لفى سجين ملغى وتعقب بأن الغاءه لا يتسنى الا اذا كان معمولا للخبر أعنى كتاب أو لصفته أعنى مرقوم وذلك لا يجوز لان كتاب موصوف فلا يعمل ولان مرقوم الذى هو

صفته لا يجوز ان تدخل اللام في معموله ولا يجوز أن يتقدم معموله على الموصوف وفيه نظر وقيل كتاب خبر ثان لان وقيل خبر مبتدا محذوف هو ضمير راجع الى كتاب الفجار ومناط الفائدة الوصف والجملة في البين اعتراضية وكلا القولين خلاف الظاهر وعن عكرمة ان سجين عبارة عن الخسار والهوان كما تقول بلغ فلان الحضيض اذا صار في غاية الخمول والكلام في وما أدراك الخ عليه يعلم مما ذكرنا وهذا خلاف المشهور وزعم بعض اللغويين ان نونه بدل من لام وأصله سجيل فهو كجبرين في جبريل فليس مشتقا من السجن أصلا ومرقوم من رقم الكتاب اذا أعجمه وبينه لئلا يلتبس أي كتاب بين الكتابة أو من رقم الكتاب اذا جعل له رقما أي علامة أي كتاب معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وقال ابن عباس والضحاك مرقوم مختوم بلغة حمير وذكر بعضهم انه يقال رقم الكتاب بمعنى ختمه ولم يخصه بلغة دون لغة وفي البحر مرقوم أي مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحى وهو كما ترى وشاع الرقم في الكتابة قال أبو حيان وهو أصل معناه ومنه قول الشاعر

سأرقم في الماء القراح اليكم ✡ على بعدكم ان كان للماء راقم

وأما الرقم المعروف عند أهل الحساب فالظاهر انه بمعنى العلامة وخص بعلامة العدد فيما بينهم وقوله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ متصل بقوله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين وما بينهما اعتراض والمراد للمكذبين بذلك اليوم فقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ اما مجرور على انه صفة ذامة للمكذبين أو بدل منه أو مرفوع أو منصوب على الذم وجوز أن يكون صفة كاشفة موضحة وقيل هو صفة مخصصة فارقة على ان المراد المكذبين بالحق والاول أظهر لان قوله تعالى ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ الخ يدل على ان القصد الى المذمة أي وما يكذب بيوم الدين الا كل متجاوز حدود النظر والاعتبار غال في التقليد حتى جعل قدرة الله تعالى قاصرة عن الاعادة وعلمه سبحانه قاصراً عن معرفة الاجزاء المتفرقة التى لا بد في الاعادة منها فعد الاعادة محالة عليه عز وجل ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أى كثير الآثام منهمك في الشهوات المخدجة الفانية بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية وحملته على انكارها ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ الناطقة بذلك ﴿ قَالَ ﴾ من فرط جهله واعراضه عن الحق الذى لا محيد عنه ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى هي حكايات الاولين يعنى هي اباطيل جاء بها الاولون وطال أمد الاخبار بها ولم يظهر صدقها أو أباطيل ألقيت على آبائنا الاولين وكذبوها ولسنا أول مكذب بها حتى يكون التكذيب منا عجلة وخروجا عن طريق الحزم والاحتياط والأول أظهر والآية قيل نزلت في النضر بن الحرث وعن الكلبي أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وأياما كان فالكلام على العموم وقرأ أبو حيوة وابن مقسم اذا يتلى بتذكير الفعل وقرىء اذا تتلى على الاستفهام الانكارى ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للمعتدى الاثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه وقوله عز وجل ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بيان لما أدى بهم الى التفوه بتلك العظيمة أى ليس في آياتنا ما يصحح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة بل ركب قلوبهم وغلب عليها ما استمروا على اكتسابه من الكفر والمعاصى حتى صار كالصدا في المرآة فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق فلذلك قالوا ما قالوا والرين في الاصل الصدأ يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا ويقال ران فيه النوم أى رسخ فيه وفى البحر أصل الرين الغلبة يقال رانت الخمر على عقل شاربها أى غلبت وران الغشى على عقل المريض أى غلب وقال أبو زيد يقال رين بالرجل يران به رينا اذا وقع فيما لا يستطيع منه الخروج وأريد به حب المعاصى الراسخ بجامع أنه كالصدا المسود للمرآة والفضة مثلا المغير عن الحالة الاصلية وأخرج

الامام احمد والترمذى والحاكم وصححاه و النسائى وابن ماجه وابن حبان وغيرهم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان العبد اذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وان عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى ذكرالله تعالى فى القرآن كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه قال كانوا يرون أن الرين هو الطبع وذكروا له أسبابا وفي حديث أخرجه عبد بن حميد من طريق خليد بن الحكم عن أبى المجبر أنه عليه الصلاة والسلام قال أربع خصال مفسدة للقلوب مجاراة الاحمق فان جاريته كنت مثله وان سكت عنه سلمت منه وكثرة الذنوب مفسدة للقلوب وقد قال الله تعالى بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون والخلوة بالنساء والاستمتاع بهن والعمل برأيهن ومجالسة الموتى قيل يارسول الله من هم قال كل غنى قد أبطره غناه وقرىء بادغام اللام في الراء وقال أبو جعفر بن الباذش أجمعوا يعنى القراء على ادغام اللام في الراء الا ماكان من وقف حفص على بل وقفا خفيفا يسيراً لتبيين الاظهار وليس كما قال من الاجماع ففى اللوامح عن قالون من جميع طرقه اظهار اللام عند الراء نحو قوله تعالى بل رفعه الله اليه بل ربكم وفي كتاب ابن عطية وقرأ نافع بل ران غير مدغم وفيه أيضا وقرأ نافع أيضا بالادغام والامالة وقال سيبويه في اللام مع الراء نحو أشغل رحمه البيان والادغام حسنان وقال ايضا فاذا كانت يعنى اللام غير لام التعريف نحو لام هل وبل فان الادغام أحسن فان لم تدغم فهى لغة لاهل الحجاز وهي عربية جائزة وفي الكشاف قرىء بادغام اللام في الراء وبالاظهار والادغام أجود وأميلت الالف وفخمت فليحفظ ﴿ كَلَّا ﴾ ردع وزجر عن الكسب الرائن أو بمعنى حقا ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى هؤلاء المكذبين ﴿عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ لايرونه سبحانه وهو عز وجل حاضر ناظر لهم بخلاف المؤمنين فالحجاب مجاز عن عدم الرؤية لان المحجوب لايرى ماحجب أو الحجب المنع والكلام على حذف مضاف أى عن رؤية ربهم لممنوعون فلا يرونه سبحانه واحتج بالآية مالك على رؤية المؤمنين له تعالى من جهة دليل الخطاب والا فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصيص وقال الشافعى لما حجب سبحانه قوما بالسخط دل على ان قوما يرونه بالرضا وقال أنس بن مالك لما حجب عز وجل أعداءه سبحانه فلم يروه تجلى جل شأنه لاوليائه حتى رأوه عز وجل ومن أنكر رؤيته تعالى كالمعتزلة قال ان الكلام تمثيل للاستخفاف بهم واهانتهم لانه لايؤذن على الملوك الا للوجهاء المكرمين لديهم ولايحجب عنهم الا الادنياء المهانون عندهم كما قال

(١) اذا اعتروا باب ذى عبية رجبوا ☆ والناس من بين مرجوب ومحجوب

أو هو بتقدير مضاف أى عن رحمة ربهم مثلا لمحجوبون وعن ابن عباس وقتادة ومجاهد تقدير ذلك وعن ابن كيسان تقدير الكرامة لكنهم أرادوا عموم المقدر للرؤية وغيرها من ألطافه تعالى والجار والمجرور متعلق بمحجوبون وهو العامل في يومئذ والتنوين فيه تنوين عوض والمعوض عنه هنا يقوم الناس السابق كأنه قيل انهم لمحجوبون عن ربهم يوم اذ يقوم الناس لرب العالمين ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ مقاسو حرها على ماقال الخليل وقيل داخلون فيها وثم قيل لتراخى الرتبة لكن بناء على ماعندهم فان صلى الجحيم عندهم أشد من حجابهم عن ربهم عز وجل وأما عند المؤمنين لا سيما الوالهين به سبحانه منهم فان الحجاب عذاب لايدانيه عذاب ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تقريعا وتوبيخا من جهة الخزنة أو أهل الجنة ﴿هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

(١) قوله اذا اعتروا الخ عراه واعتراه اذا غشيه وذى عبية بضم العين وتشديد الباء الموحدة أى ملك ذى كبر ورجبوا بالتخفيف أى عظموا اهـ منه

فذوقوا عذابه ﴿ كَلَّا ﴾ تكرير للردع السابق في قوله تعالى كلا ان كتاب الفجار الخ ليعقب بوعد الابرار كما عقب ذاك بوعيد الفجار اشعارا بأن التطفيف فجور والايفاء بر وقيل ردع عن التكذيب فلا تكرار ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ الكلام نحو مامر في نظيره بيد أنهم اختلفوا في عليين على وجه آخر غير اختلافهم في سجين فقال غير واحد هو علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع على فعيل من العلو كسجين من السجن سمي بذلك أما لانه سبب الارتفاع الى أعالي درجات الجنان أو لانه مرفوع في السماء السابعة أو عند قائمة العرش اليمنى مع الملائكة المقربين عليهم السلام تعظيما له وقيل هو المواضع العلية واحده علي وكان سبيله أن يقال علية كما قالوا للغرفة علية فلما حذفوا التاء عوضوا عنها الجمع بالواو والنون وحكي ذلك عن أبي الفتح بن جني وقيل هو وصف للملائكة ولذلك جمع بالواو والنون وقال الفراء هو اسم موضوع على صيغة الجمع ولا واحد له من لفظه كعشرين وثلاثين والعرب اذا جمعت جمعا ولم يكن له بناء واحد ولا تثنية أطلقوه في المذكر والمؤنث بالواو والنون ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ صفة أخرى لكتاب أي يحضرونه على أن يشهد من الشهود بمعنى الحضور وحضوره كناية عن حفظه في الخارج أو يشهدون بما فيه يوم القيامة على أنه من الشهادة وعلى الوجهين المراد بالمقربين جمع من الملائكة عليهم السلام كذا قالوا.وأخرج عبد بن حميد من طريق خالد بن عرعرة وأبي عجيل ان ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية فقال ان المؤمن يحضره الموت ويحضره رسل ربه عز وجل فلاهم يستطيعون ان يؤخروه ساعة ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته فاذا جاءت ساعته قبضوا نفسه فدفعوه الى ملائكة الرحمة فأروه ماشاء الله تعالى أن يروه من الخير ثم عرجوا بروحه الى السماء فيشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهوا به الى السماء السابعة فيضعونه بين أيديهم ولا ينتظرون به صلاتكم عليه فيقولون اللهم هذا عبدك فلان قبضنا نفسه ويدعون له بما شاء الله تعالى أن يدعوا له فنحن نحب أن نشهدنا اليوم كتابه فينشر كتابه من تحت العرش فيثبتون اسمه فيه وهم شهود فذلك قوله تعالى كتاب مرقوم يشهده المقربون وسأله عن قوله تعالى ان كتاب الفجار الآية فقال ان العبد الكافر يحضره الموت ويحضره رسل ربه سبحانه فاذا جاءت ساعته قبضوا نفسه فدفعوه الى ملائكة العذاب فأروه ماشاء الله تعالى ان يروه من الشر ثم هبطوا به الى الارض السفلى وهو سجين وهي آخر سلطان ابليس فاثبتوا كتابه فيها الحديث وفي بعض الاخبار ما ظاهره ان نفس العمل يكون في سجين ويكون في عليين فقد أخرج ابن المبارك عن ضخرت بن حبيب قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان الملائكة يرفعون اعمال العبد من عباد الله تعالى يستكثرونه ويزكونه حتى يبلغوا به الى حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى اليهم انكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على مافي نفسه ان عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويستحقرونه حتى يبلغوا به الى حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى اليهم انكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه ان عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين وبأدنى تأويل يرجع الى ماتضمنته الآية فلاتغفل وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ شروع في بيان محاسن أحوالهم اثر بيان حال كتابهم والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل هذا حال كتابهم فما حالهم فأجيب بما ذكر أي انهم لفي نعيم عظيم ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي على الاسرة في الحجال وقد تقدم تمام الكلام فيها ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أي الى ما شاؤا من رغائب مناظر الجنة وما تحجب الحجال أبصارهم وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد الى

ما أعدالله تعالى لهم من الكرامات وقال مقاتل الى أهل النار أعدائهم ولم يرتضه بعض ليكون مافي آخر السورة تأسيسا وقيل ينظر بعضهم الى بعض فلا يحجب حبيب عن حبيبه وقيل النظر كناية عن سلب النوم فكأنه قيل لاينامون وكأنه لدفع توهم النوم من ذكر الأرائك المعدة للنوم غالبا وفيه اشارة الى أنه لانوم في الجنة كما وردت به الاخبار لما فيه من زوال الشعور وغفلة الحواس الى غيرذلك مما لايناسب ذلك المقام وعليه يكون قوله سبحانه ﴿تعرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم﴾ أى بهجة النعيم ورونقه لنفى مايوهمه سلب النوم من الضعف وتغير بهجة الوجه كما في الدنيا وهو وجه لايعرف فيه الناظر نضرة التحقيق والخطاب في تعرف لكل من له حظ من الخطاب للايذان بأن مالهم من آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لايختص براه دون راء وقرأ أبوجعفر وابن أبى اسحق وطلحة وشيبة ويعقوب تعرف مبنياً للمفعول نضرة رفعاً على النيابة عن الفاعل وجوز بعضهم أن يكون نائب فاعل تعرف ضمير الابرار وفي وجوههم نضرة مبتدأ وخبر كأنه قيل تعرف الابرار بان في وجوههم نضرة النعيم وليس بشىء كما لايخفى وقرأ زيد بن على كذلك إلا أنه قرأ يعرف بالياء إذ تأنيث نضرة مجازى ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ قال الخليل هو أجود الخمر وقال الاخفش والزجاج الشراب الذى لا غش فيه قال حسان

يسقون من ورد البريص عليهم ✫ بردى يصفق بالرحيق السلسل

وفسر ههنا بالشراب الخالص مما يكدر حتى القول ﴿مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أى مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين كما روى عن مجاهد وذكر أن طين الجنة مسك معجون والظاهر أن الختام مايختم به وان الختم على حقيقته وكذا اسناده وقولنا مختوم أوانيه الخ ليس لان الاسناد مجازى بل لان الختم على الشىء أعنى الاستيثاق منه بالختم طريقه ذلك وختم أعتناء به واظهاراً لكرامة شاربه وكان ذلك بما هو على هيئة الطين ليكون على النهج المألوف ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لكمال نفاسته والا فليس ثمة غبار أو ذباب أو خيانة ليصان عن ذلك بالختم وقال ابن عباس وابن جبير والحسن المعنى خاتمته ونهايته رائحة مسك اذا شرب أى يجد شاربه ذلك عند انتهاء شربه وكان ذلك لان اشتغال الذائقة بكمال لذته تمنع عن ادراك الرائحة فاذا انقطع الشرب أدركت والا فالرائحة لاتختص بالانتهاء وقيل المعنى ذونهاية نهايتــه وما يبقى بعد شربه ويشرب في أوانيه مسك وليس كشراب الدنيا نهايتــه وما يرسب في انائه طين أو نحوه وهو كما ترى وقيل ان الرحيق يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك فالمعنى ذو ختام ختام مزاجه مسك وهو مع كونه خلاف الظاهر وفيما بعد مايبعده في الجملة يحتاج الى نقل يعول عليه وقرأ على كرم الله تعالى وجهه والنخعى والضحاك وزيد بن على وأبو حيوة وابن أبى عبلة والكسائى خاتمه بالف بعد الخاء وفتح التاء والمراد مايختم به أيضا فان فاعلا بالفتح يكون أيضا اسم آلة كالقالب والطابع لكنه سماعى وعن الضحاك وعيسى وأحمد بن جبير الانطاكى عن الكسائى كسر التاء أى آخره رائحة مسك والجمل السابقــة أعنى على الارائك ينظرون وتعرف في جوههم الخ ويسقون الخ قيــل أحوال مترادفة وقيــل مستأنفات لجملــة ان الابرار الخ وقعت أجوبة للسؤال عن حالهــم والفصــل للتنبيه على استقلال كل في بيــان كرامتهم ﴿وَفِى ذَلِكَ﴾ اشارة الى الرحيق وهو الانسب بمابعد أو الى ماذكر من أحوالهــم وما فيــه من معنى البعــد للاشعار بعلو مرتبته وبعــد منزلته وجوز أن يكون لــكونه في الجنة والجــار والمجرور متعلق بقوله تعــالى ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ وقدم للاهتمام او للحصر أى فليتنافس

وليرغب فيه لا في خمور الدنيا أولا في غيره من ملاذها ونعيمها ﴿الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أى الراغبون في المبادرة الى طاعة الله تعالى وقيل أى فليعمل لاجله أى لاجل تحصيله خاصة والفوز به العاملون كقوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون أى فليستبق في تحصيل ذلك المتسابقون وأصل التنافس التغالب في الشيء النفيس وأصله من النفس لعزتها قال الواحدى نفست الشيء أنفسه نفاسة والتنافس تفاعل منه كان كل واحد من الشخصين يريد ان يستأثر به وقال البغوى اصله من الشيء النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه ويقال نفست عليه بالشيء أنفس نفاسة اذا بخلت به عليه وفي مفردات الراغب المنافسة مجاهدة النفس للتشبه بالافاضل واللحوق بهم من غير ادخال ضرر على غيره وهي بهذا المعنى من شرف النفس وعلو الهمة والفرق بينها وبين الحسد اظهر من ان يخفى واستشكل ذلك التعلق بانه يلزم عليه دخول العاطف على العاطف اذ التقدير وفليتنافس في ذلك وأجيب بانه بتقدير القول أى ويقولون لشدة التلذذ من غير اختيار في ذلك فليتنافس المتنافسون أى فى الدنيا على معنى أنه كان اللائق بهم أن يتنافسوا في ذلك وقيل الكلام على تقدير حرف الشرط والفاء واقعة في جوابه أى وان أريد تنافس فليتنافس في ذلك المتنافسون وتقديم الظرف ليكون عوضاً عن الشرط في شغل حيزه وهو أنفس مما تقدم وقوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ عطف على ختامه مسك صفة أخرى لرحيق مثله وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته وتسنيم علم لعين بعينها فى الجنة كما روى عن ابن مسعود وعن حذيفة اليمان أنه قال عين من عدن سميت بالتسنيم الذى هو مصدر سنمه اذا رفعه إما لان شرابها أرفع شراب في الجنة على ماروى عن ابن عباس أو لانها تأتيهم من فوق على ماروى عن الكلبي وروى أنها تجرى فى الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم وقيل سميت بذلك لرفعة من يشرب بها ولا يلزم من كونه علما لما ذكر منع صرفه للعلمية والتأنيث لان العين مؤنثة إذهي قد تذكر بتأويل الماء أونحوه ومن بيانية أو تبعيضية أى مايمزج به ذلك الرحيق هو تسنيم أى ماء تلك العين أو بعض ذلك وجوز أن تكون ابتدائية ﴿عَيْنًا﴾ نصب على المدح وقال الزجاج على الحال من تسنيم قيل وصح كونه حالا مع جموده لوصفه بقوله تعالى ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أو لتأويله بمشتق كجارية وأنت تعلم ان الاشتقاق غير لازم والباء اما زائدة أى يشربها أو بمعنى من أى يشرب منها أو على تضمين يشرب معنى يروى أى يشرب راوين بها أو يروى بها شاربين المقربون أو صلة الالتذاذ أى يشرب ملتذا بها أو الامتزاج أى يشرب الرحيق ممتزجا بها أو الاكتفاء أى يشرب مكتفين بها أوجه ذكروها وفي كونها صلة الامتزاج مقال فقد قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح يشرب بها المقربون صرفا وتمزج للابرار ومذهب الجمهور ان الابرار هم أصحاب اليمين وأن المقربين هم السابقون كأنهم انما كان شرابهم صرف التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحى القيوم فهى الرحيق التى لا يقاس بها رحيق والمدامة التى تواصى على شربها ذووا الاذواق والتحقيق

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

وقال قوم الابرار والمقربون في هذه السورة بمعنى واحد يشمل كل من نعم في الجنة وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الخ حكاية لبعض قبائح مشركى قريش أبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم جىء بها تمهيدا لذكر بعض أحوال الابرار في الجنة ﴿كَانُوا﴾ أى فى الدنيا كما قال قتادة ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ كانوا يستهزؤن بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من الفقراء وفي البحر روى أن عليا كرم الله

تعالى وجهه وجمعا من المؤمنين معه مروا بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم فنزلت ان الذين أجرموا الخ قبل ان يصل على كرم الله تعالى وجهه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفي الكشاف حكاية ذلك عن المنافقين وانهم قالوا ربنا اليوم الاصلع أى سيدنا يعنون عليا كرم الله تعالى وجهه وانما قالوه استهزاء ولعل الاول أصح وتقديم الجار والمجرور اما للقصر اشعارا بغاية شناعة ما فعلوا أى كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على منهاج قوله تعالى أفي الله شك لمراعاة الفواصل ﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ أى المؤمنون ﴿بِهِمْ﴾ أى بالذين أجرموا وهم في أنديتهم ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أى يغمز بعضهم بعضا ويشيرون باعينهم استهزاء بالمؤمنين وارجاع ضمير مروا للمؤمنين وضمير بهم المجرمين هو الاظهر الاوفق بحكاية سبب النزول واستظهر ابو حيان العكس معللا له بتناسق الضمائر ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ أى المجرمون ورجعوا من مجالسهم ﴿إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ ملتذين باستخفافهم بالمؤمنين وكان المراد بذلك الاشارة الى انهم يعدون صنيعهم ذلك من أحسن مااكتسبوه في غيبتهم عن اهلهم أو الى ان له وقعا في قلوبهم ولم يفعلوه مراعاة لاحد وانما فعلوه لحظ أنفسهم وقيل فيه اشارة الى انهم كانوا لايفعلون ذلك بما رأى من المارين بهم ويكتفون حينئذ بالتغامز وقرأ الجمهور فاكهين بالالف قيل هما بمعنى وقيل فكهين أشرين وقيل فرحين وفاكهين قيل متفكهين وقيل ناعمين وقيل مادحين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ واذا رأوا المؤمنين أينما كانوا ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ يعنون جنس المؤمنين مطلقا لاخصوص المرئيين منهم والتاكيد لمزيد الاعتناء بسبهم ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ جملة حالية من ضمير قالوا أى قالوا ذلك والحال انهم ماارسلوا من جهة الله تعالى على المؤمنين موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم واستهزاء بهم واشعارا بان ماجترؤا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته تعالى وجوز أن يكون من جملة قول المجرمين والاصل وما أرسلوا علينا حافظين الا أنه قيل عليهم نقلا بالمعنى على نحو قال زيد ليفعلن كذا وغرضهم بذلك انكار صد المؤمنين اياهم عن الشرك ودعائهم الى الايمان ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى المعهودون من الفقراء ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أى من المعهودين وجوز التعميم من الجانبين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم اذلاء مغلولين قد غشيتهم فنون الهوان والصغار بعد العز والكبر ورهقهم ألوان العذاب بعد التنعم والترفه والظرف والجار والمجرور متعلقان بيضحكون وتقديم الجار والمجرور قيل للقصر تحقيقا للمقابلة أى واليوم هم من الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا وقوله تعالى ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حال من فاعل يضحكون أى يضحكون منهم ناظرين اليهم والى ماهم فيه من سوء الحال وقيل يفتح للكفار باب الى الجنة فيقال لهم هلم هلم فاذا وصلوا اليها أغلق دونهم يفعل ذلك مرارا حتى ان أحدهم يقال له هلم هلم فما يأتي من اياسه ويضحك المؤمنون منهم وتعقب بأن قوله تعالى ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يأباه فانه صريح في ان ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم في الدنيا فلا بد من المجانسة والمشاكلة حتما والحق انه لا اباء كما لايخفى والتثويب والاثابة المجازاة ويقال ثوبه وأثابه اذا جازاه ومنه قول الشاعر

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب ✡ وحسبك ان يثنى عليك وتحمدى

وظاهر كلامهم اطلاق ذلك على المجازاة بالخير والشر واشتهر بالمجازاة بالخير وجوز حمله عليه هنا على ان المراد التهكم كما قيل به في قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم وذق انك أنت العزيز الكريم كأنه تعالى يقول للمؤمنين هل اثبنا هؤلاء على ما كانوا يفعلون كما أثبناكم على ما كنتم تعملون فيكون هذا القول زائدا

في سرورهم لما فيه من تعظيمهم والاستخفاف باعدائهم والجملة الاستفهامية حينئذ معمولة لقول محذوف وقع حالا من ضمير يضحكون أو من ضمير ينظرون أى يضحكون أو ينظرون مقولا لهم هل ثوب الخ ولم يتعرض لذلك الجمهور وفي البحر الاستفهام لتقرير المؤمنين والمعنى قد جوزى الكفار ما كانوا الخ وقيل هل ثوب متعلق بينظرون والجملة فى موضع نصب به بعد اسقاط حرف الجر الذى هو الى انتهى وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى يفعلونه والكلام بتقدير مضاف أى ثواب أوجزاء ما كانوا الخ وقيل هو بتقدير باء السببية أى هل ثوب الكفار بما كانوا وقرأ النحويان وحمزة وابن محيصن بادغام اللام في الثاء والله تعالى أعلم

سـورة المطففـين

مكية في قول ٱبن مسعود والضحاك ومقاتل. ومدنية في قول الحسن وعكرمة. وهي ست وثلاثون آية

قال مقاتل: وهي أوّل سورة نزلت بالمدينة. وقال ٱبن عبّاس وقتادة: مدنية إلا ثمان آيات من قوله: ﴿إن الذِين أجرموا﴾ إلى آخرها، مكي. وقال الكلبيّ وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

[٢] ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ روَى النَّسائي عن ٱبن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: ﴿ويلٌ لِلمطففِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وعن ٱبن عباس أيضاً قال: هي: أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا ٱشتَروا ٱستوْفَوا بكيل راجح، فإذا باعوا بَخَسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة ٱنتهوا، فهم أوفى الناس كيلاِ إلى يومهم هذا. وقال قوم: نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة، وٱسمه عمرو؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطي بالآخر: قاله أبو هريرة رضي الله عنه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ويْلٌ﴾ أي شدة عذاب في الآخرة. وقال ٱبن عباس؛ إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صَديد أهل النار، فهو قوله تعالى: ﴿ويل لِلمطَفِّفِين﴾ أي الذين يَنْقصون مكاييلهم وموازينهم. ورُوِي عن ٱبن عمر قال: المطفِّف: الرجل يستأجر المكيال

وهو يعلم أنه يَحِيف في كيله فوزره عليه. وقال آخرون: التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث. وفي الموطّأ قال مالك: ويقال لكل شيء وفاءٌ وتطفيف. وروي عن سالم بن أبي الجعْد قال: الصلاة بمكيال، فمن أوفَى له ومن طَفَّف فقد علمتم ما قال الله عزّ وجلّ في ذلك: «ويل لِلمطففِين».

الثالثة ـ قال أهل اللغة: المطفِّف مأخوذ من الطَّفِيف، وهو القليل، والمطفِّف هو المقِلّ حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن. وقال الزجاج: إنما قيل للفاعل من هذا مطفِّف؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف، وإنما أخذ من طَفِّ الشيءِ وهو جانبه. وطِفاف المَكُّوك وطَفافه بالكسر والفتح: ما ملا أصباره، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه؛ وفي الحديث: «كلكم بنو آدم طَفُّ الصاعِ لم تملئوه». وهو أن يقرب أن يمتلىء فلا يفعل؛ والمعنى بعضُكم من بعض قريب، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى. والطُّفاف والطُّفافة بالضم: ما فوق المكيالِ. وإناء طُفاف: إذا بلغ الملء طفافه؛ تقول منه: أطفَفْت. والتطفيف: نقص المِكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره، أي جوانبه؛ يقال؛ أدهقت الكأس إلى أصبارها أي إلى رأسها. وقول ٱبن عمر حين ذكر النبي ﷺ سَبْق الخيل: كنت فارساً يومئذٍ فسبقت الناس حتى طَفَّف بي الفَرَس مسجدَ بني زُرَيق، حتى كاد يساوي المسجد. يعني: وثب بي.

الرابعة ـ المطفِّف: هو الذي يُخْسر في الكيل والوزن، ولا يوفي حَسْب ما بيناه؛ وروى ٱبن القاسم عن مالك: أنه قرأ «ويل للمطفِّفِينَ» فقال: لا تُطَفِّفْ ولا تَخْلُب[١]، ولكن أرسلْ وصُبّ عليه صَبّاً، حتى إذا ٱستوفى[٢] أرسل يدك ولا تُمْسِك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطُّفاف، وقال: إن البَركة في رأسه. قال: وبلغني أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديد.

---

(١) كذا في الأصول: أي لا تغش وفي ابن العربي (ولا تجلب).

(٢) في أ، ح، ز، ط، ل، وابن العربي: «استوى».

قوله تعالى: ﴿الذِينَ إذا اكتالوا على الناسِ يستوفُون﴾ قال الفَراء: أي من الناس؛ يقال: اكتلت منك: أي استوفيت منك، ويقال اكتلت ما عليك: أي أخذت ما عليك. وقال الزَّجاج: أي إذا اكتالوا من الناس استوفَوا عليهم الكيل؛ والمعنى: الذين إذا استوفوا أخذوا الزيادة، وإذا أوفَوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم. الطبري: «على» بمعنى عند.

قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهُم أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرون﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾: أي كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام، فتعدى الفعل فَنَصب؛ ومثله نصحتك ونصحت لك، وأمرتك به وأمرتكه؛ قاله الأخفش والفراء. قال الفراءِ: وسمعت أعرابية تقول إذا صَدَر الناسُ أتينا التاجر فيكيلنا المُدّ والمُدّين إلى الموسم المقبل. وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على «كالُوا» و «وزنوا» حتى تصل به «هُمْ» قال: ومن الناس من يجعلها توكيداً، ويجيز الوقف على «كالُوا» و «وزَنوا» والأوّل الاختيار؛ لأنها حرف واحد. هو قول الكسائيّ. قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، ويقف على «كالوا» و «وزنوا» ويبتدىء «هُمْ يخسرون» قال: وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضاً. قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: **إحداهما:** الخطّ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا «كالوا» و «وزنوا» بالألف، والأخرى: أنه يقال؛ كِلْتك ووزنتُك بمعنى كلت لك، ووزنت لك، وهوكلام عربي؛ كما يقال: صِدْتُك وصِدْت لك، وكسبتُك وكسبْتُ لَك، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك. قوله: «يُخْسِرون»: أي يَنْقُصون؛ والعرب تقول: أخسرت الميزان وخَسَرته. و «هم» في موضع نصب، على قراءة العامة، راجع إلى الناس، تقديره «وإذا كالوا» الناس «أو وزنوهم يُخْسِرون» وفيه وجهان: **أحدهما:** أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذف الجار، وأوصل الفعل، كما قال:

ولقَـدْ جَنَيْتُـكَ أَكْمُـؤاً وعساقِـلاً ولقد نهيتُك عن بنات الأوبرِ

أراد: جنيت لك، والوجه الآخر: أن يكون على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مُقامه، والمضاف هو المكيل والموزون. وعن ٱبن عباس رضي الله عنه: إنكم معاشر الأعاجم وَلِيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المِكيالَ والمِيزان. وخَصَّ الأعاجم، لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعاً، وكانا مُفرقين في الحَرَمين؛ كان أهل مكة يزِنون، وأهل المدينة يكيلون. وعلى القراءة الثانية «هُمْ» في موضع رفع بالابتداء؛ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون. ولا يصح؛ لأنه تكون الأُولى مُلغاة، ليس لها خبر، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها: وإذا كالوهم يَنْقُصون، أو وزنوا هم يُخْسرون.

الثانية ـ قال ٱبن عباس قال النبي ﷺ: «خمس بخمسٍ: ما نقض قوم العهد إلا سَلَّط الله عليهم عدوّهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طَفَّفوا الكيل إلا مُنعوا النَّبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حَبَس الله عنهم المَطَر» خرجه أبو بكر البزار بمعناه، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ٱبن عمر. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وقال مالك بن دينار: دَخَلْت على جارٍ لي قد نزل به الموت، فجعل يقول؛ جَبَلين من نار! جبلين من نار! فقلت: ما تقول؟ أتهجر[1]؟ قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان، أكيل بأحدهما، وأكتال بالآخر؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر، حتى كَسَرتهما، فقال: يا أبا يحيى، كلما ضربت أحدهما بالآخر ٱزداد عِظَماً، فمات من وجَعه. وقال عكرمة: أشهدُ على كل كَيال أو وزّان أنه في النار. قيل له: فإن ٱبنك كيال أو وزان. فقال: أشهد أنه في النار. قال الأصمعيّ: وسمعت أعرابية تقول: لا تَلْتَمِس المروءة ممن مروءته في رءوس المكاييل، ولا ألسنة الموازين. ورُوي ذلك عن عليّ رضي الله عنه. وقال عبدُ خير: مر عليّ رضي الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح، فأكفأ الميزان، ثم قال؛ أقم الوزن بالقسط؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت. كأنه أمره بالتسوية أوّلاً ليعتادها، ويُفصل الواجبَ من النفل. وقال نافع: كان ٱبن عمر يمر بالبائع فيقول: ٱتقِ الله وأوف الكيل

(١) هجر في نومه ومرضه يهجر هجراً: هذى.

والوزن بالقسط، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العَرَق ليلْجِمُهم إلى أنصاف آذانهم. وقد رُوِي أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبي ﷺ إلى خيبر وٱستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة، فقال أبو هريرة: فوجدناه في صلاة الصبح فقرأ في الركعة الأولى «كهيعص» وقرأ في الركعة الثانية «ويل لِلمطففِين» قال أبو هريرة: فأقول في صلاتي: ويْل لأبي فلان، كان له مكيالان إذا ٱكتال ٱكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص.

[٤] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾.

[٦] ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ألا يظن أولئِك﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطرون التطفيف ببالهم، ولا يُخَمِّنون تخميناً ﴿إنهم مبعوثون﴾ فمسئولون عما يفعلون. والظن هنا بمعنى اليقين؛ أي ألا يُوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظن بمعنى التردد، أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنُّوه، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط ﴿لِيومٍ عظِيمٍ﴾ شأنه وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرِبّ العالمِين﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ العامل في «يومَ» فعل مضمر، دل عليه «مبعوثون». والمعنى يبعثون ﴿يومَ يقوم الناس لرب العالمين﴾. ويجوز أن يكون بدلاً من يوم في «لِيومٍ عظِيم»، وهو مبني. وقيل؛ هو في موضع خفض؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن. وقيل: هو منصوب على الظرف أي في يوم، ويقال: أقم إلى يومَ يخرج فلان، فتنصب يوم، فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذٍ يخفضون ويقولون: أقم إلى يومِ خروج فلان. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، التقدير: إنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم.

الثانية ـ وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزْن. وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظن، ووصفِ اليوم بالعظيم، وقيامِ الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته برب العالمين، بيان بليغ لِعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التسوية والعدل، في كل أخذٍ وإعطاءٍ، بل في كل قول وعمل.

الثالثة ـ قرأ ٱبن عمر: «ويل لِلمطففِين» حتى بلغ ﴿يومَ يقومُ الناسُ لِرب العالمِين﴾ فبكى حتى سَقَط، وٱمتنع من قراءة ما بعده، ثم قال؛ سمعت النبي ﷺ يقول «يومَ يقوم الناس لرب العالمين، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فمنهم من يبلغ العَرَق كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حِقْويه، ومنهم من يبلغ صدره، ومنهم من يبلغ أذنيه، حتى إن أحدهم ليغيب في رَشْحه كما يغيب الضِّفدع»[1]. وروَى ناس عن ٱبن عباس قال: يقومون مقدار ثلثمائة سنة. قال: ويهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة، ورُوي عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «يقومون ألف عام في الظُّلة». ورَوَى مالك عن نافع عن ٱبن عمر عن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وعنه أيضاً عن النبي ﷺ: «يقوم مائة سنة». وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ لبشير الغِفاريّ: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين، لا يأتيهم فيه خبر، ولا يؤمر فيه بأمر» قال بشير: المستعان الله.

قلت: قد ذكرناه مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدريّ عن النبي ﷺ: «إنه لَيُخَفّف عن المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا» في «سأل سائل»[2]. وعن ٱبن عباس: يَهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة. وقيل:

(١) أي في الماء.
(٢) راجع ١٨/ ٢٨٢.

إن ذلك المقام على المؤمن كزوال الشمس؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق: ﴿ألا إن أولياء اللّهِ لا خوف عليهِم ولا هم يحزنون﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿الذِين آمنوا وكانوا يتقون﴾ جعلنا الله منهم بفضله وكرمه وجوده. ومنه آمين. وقيل: المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لرب العالمين: قاله ٱبن جُبير. وفيه بُعد؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحة ثابتة، وحسبُك بما في صحيح مسلم والبخاريّ والترمذيّ من حديث ٱبن عمر عن النبي ﷺ «يوم يقوم الناس لِرب العالمِين» قال: «يقوم أحدهم في رشْحه إلى نصف أذنيه». ثم قيل: هذا القيام يوم يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء.

الرابعة ـ القيام لله رب العالمين سبحانه حَقير بالإضافة إلى عظمته وحقه، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فٱختلفَ فيه الناس؛ فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه. وقد رُوي أن النبي ﷺ قام إلى جعفر بن أبي طالب وٱعتنقه، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تِيب عليه. وقول النبي ﷺ للأنصار حين طلع عليه سعد بن مُعاذ: «قوموا إلى سيِّدكم». وقال أيضاً: «من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتوبأ مقعده من النار». وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن ٱنتظَر ذلك وٱعتقده لنفسه، فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوُصلة فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه. وقد مضى في آخر سورة «يوسف»[1] شيء من هذا.

[٧] ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ﴾.

[٨] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾.

[٩] ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾.

[١٠] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[١١] ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ ﴾.

[١٢] ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

(١) راجع ٩/ ٢٦٥ فما بعدها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِن كتاب الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية: «كَلَّا»: رَدْع وتنبيه؛ أي ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان، أو تكذيب بالآخرة، فليرتدعوا عن ذلك. فهي كلمة رَدْع وزَجْر، ثم ٱستأنف فقال: ﴿إِن كِتاب الفُجَّارِ﴾. وقال الحسن: «كَلَّا» بمعنى حَقًّا. ورَوَى ناس عن ٱبن عباس «كَلَّا» قال: ألا تصدقون؛ فعلى هذا: الوقفُ ﴿لِرب العالمِين﴾. وفي تفسير مقاتل: إن أعمال الفجار. وروى ناس عن ٱبن عباس قال: إن أرواح الفجار وأعمالهم ﴿لَفِي سِجينٍ﴾. وروى ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد قال: سِجِّين صخرة تحت الأرض السابعة، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها. ونحوه عن ٱبن عباس وقتادة وسعيد بن جُبير ومقاتل وكعب؛ قال كعب: تحتها أرواح الكفار تحت خدّ إبليس. وعن كعب أيضاً قال: سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة، مكتوب فيها ٱسم كل شيطان، تلقى أنفس الكفار عندها. وقال سعيد بن جبير: سجين تحت خد إبليس. يحيى بن سلام: حجر أسود تحت الأرض، يكتب فيه أرواح الكفار. وقال عطاء الخُراساني: هي الأرض السابعة السفلى، وفيها إبليس وذرّيته. وعن ٱبن عباس قال: إن الكافر يحضُره الموت، وتحضره رسل الله، فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه، أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه، ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأروه ما شاء الله أن يُرُوه من الشر، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة، وهي سِجِّين، وهي آخر سلطان إبليس، فأثبتوا فيها كتابه. وعن كعب الأحبار في هذه الآية قال: إن رُوح الفاجر إذا قبضت يُصْعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، ثم يُهْبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبلَها، فتدخل في سبع أرضين، حتى يُنْتَهَى بها إلى سِجِّين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من سجين من تحت خدّ إبليس رَقّ، فيرقم فيوضع تحت خد إبليس. وقال الحسن: سِجِّين في الأرض السابعة. وقيل: هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التي ظنوا أنها تنفعهم. قال مجاهد: المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء. وقال:

سجين صخرة في الأرض السابعة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «سجين جُب في جهنم وهو مفتوح» وقال في الفلق: «إنه جُبّ مغطى». وقال أنس: هي دَرَكة في الأرض السفلى. وقال أنس قال النبي ﷺ: سجين أسفلَ الأرض السابعة». وقال عِكرمة: «سِجين»: خسار وضلال؛ كقولهم لمن سقط قدره: قد زلق بالحضيض. وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج: ﴿لفِي سِجينٍ﴾ لفي حبس وضيق شديد، فِعِّيل من السَّجْن؛ كما يقول: فِسِّيق وشِرِّيب؛ قال ابن مقبل:

ورُفقةٍ يضرِبون البَيْضَ ضاحِية ... ضَرْباً تواصتْ به الأبطالُ سِجّينا[1]

والمعنى: كتابهم في حبس؛ جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم، أو لأنه يَحلُ من الإعراض عنه والإبعاد له مَحَلّ الزجر والهوان. وقيل: أصله سِجِّيل، فأبدلت اللام نوناً. وقد تقدّم ذلك. وقال زيد بن أسلم: سِجِّين في الأرض السافلة، وسِجيل في السماء الدنيا. القُشيريّ: سجِّين: موضع في السافلين، يدفن فيه كتاب هؤلاء، فلا يظهر بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. وهذا دليل على خبث أعمالهم، وتحقير الله إياها؛ ولهذا قال في كتاب الأبرار: ﴿يشهده المقربون﴾. ﴿وما أدراك ما سِجِّينٌ﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك. ثم فسره له فقال: ﴿كِتاب مرقومٌ﴾ أي مكتوب كالرقْم في الثوب، لا يُنْسَى ولا يُمْحى. وقال قتادة: مرقوم أي مكتوب، رقم لهم بشر: لا يُزاد فيهم أحدَ ولا يَنْقُص منهم أحد. وقال الضحاك: مرقوم: مختوم، بلغة حمير؛ وأصل الرقم: الكتابة؛ قال:

سأَرقم في الماءِ القَراحِ[3] إِليكُمُ ... على بُعدكِم إن كان للماءِ راقِمُ

وليس في قوله: «وما أدراك ما سِجِّين؟» ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربياً؛ كما لا يدل في قوله: ﴿القارِعة ما القارِعة. وما أدراك ما القارِعة﴾ بل هو تعظيم لأمر سجين. وقد مضى في مقدّمة الكتاب ـ والحمد لله ـ أنه ليس في القرآن غير عربيّ. ﴿ويلٌ يومئِذٍ لِلمكذِّبِينَ﴾

---

(١) الذي في التاج نقلاً عن الجوهري:

ورجلة يضربون الهام عن عرض

(٢) راجع ١/ ٦٨.

(٢) القراح بوزن سحاب: الماء الذي لا ثقل فيه.

أي شدةٌ وعذاب يوم القيامة للمكذبين. ثم بيَّن تعالى أمرهم فقال: ﴿الذينَ يُكَذِّبون بيومِ الدِّين﴾ أي بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد. ﴿وما يُكَذِّب به إلا كلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي فاجر جائر عن الحق، معتد على الخلق في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو أثيم في ترك أمر الله. وقيل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهما؛ لقوله تعالى: ﴿إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأولينَ﴾ وقراءة العامة «تُتْلَى» بتاءين، وقراءة أبي حَيْوة وأبي سِماك وأشهب العُقَيلي والسُّلَمي: «إذا يُتْلَى» بالياء. وأساطير الأولين: أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها. واحدها أُسْطورة وإِسطارة، وقد تقدّم.

[١٤] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾.

[١٦] ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾.

[١٧] ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبونُ﴾: «كَلاّ»: ردْع وزجْر، أي ليس هو أساطيرَ الأوّلينَ. وقال الحسن: معناها حقاً ﴿رَانَ على قُلُوبهمْ﴾. وقيل: في الترمذيّ: عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نُكْتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صُقِل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلُوَ على قلبه، وهو (الرَّانُ) الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلاّ بلْ رَان على قُلُوبهمْ ما كانوا يَكْسِبون﴾». قال: هذا حديث حسن صحيح. وكذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب. قال مجاهد: هو الرجل يُذْنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تُغَشّي الذنوب قلبه. قال مجاهد؛ هي مثل الآية التي في سورة البقرة: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ . . . الآية. ونحوه عن الفراء؛ قال: يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرَّيْنُ عليها. ورُوي عن مجاهد أيضاً قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب الذنب انقبض، وضم

(١) راجع ١١/٢.

أخرى، حتى ضم أصابعه كلها، حتى يُطْبَع على قلبه. قال: وكانوا يرون أنّ ذلك هو الرَّيْن، ثم قرأ ﴿كَلّا بلْ رانَ على قلوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبون﴾. ومثله عن حذيفة رضي الله عنه سواء. وقال بكر بن عبد الله: إن العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانياً صار كذلك، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنْخُل، أو كالغِربال، لا يعي خيراً، ولا يثبُت فيه صلاح، وقد بيَّنا في «البقرة»[1] القولَ في هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله ﷺ، فلا معنى لإعادتها. وقد روى عبد الغني بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ٱبن عباس، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ٱبن عباس شيئاً الله أعلم بصحته؛ قال: هو الران الذي يكون على الفخذين والساق والقدم، وهو الذي يُلْبس في الحرب. قال: وقال آخرون: الران: الخاطر الذي يخطر بقلب الرجل. وهذا مما لا يُضْمن عُهْدة صحتِه. فالله أعلم. فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا. وكذلك أهلُ اللغة عليه؛ يقال: رَانَ على قلبه ذنبهُ يَرِينُ رَيْناً ورُيوناً أي غلب. قال أبو عُبيدة في قوله: ﴿كَلَّا بلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكسِبُونَ﴾ أي غلب؛ وقال أبو عُبيد: كل ما غلبك [وعَلَاكَ][2] فقد ران بك، ورانك، وران عليك؛ وقال الشاعر:

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قلبِ فاجِرٍ ... فتابَ مِن الذنبِ الذي رَانَ وٱنجلَى

ورانتْ الخمر على عقله: أي غلبته، وران عليه النُّعاسُ: إذا غطّاه؛ ومنه قول عمر في الأُسَيفع ـ أُسَيْفِع جُهَيْنة ـ: فأصبح قد رِينَ[3] به. أي غلبته الديون، وكان يَدَّانُ؛ ومنه قول أبي زُبَيد يصف رجلاً شرب حتى غلبه الشراب سُكْراً، فقال:

ثـم لمـا رآه رانـتْ بِـهِ الخمـ ... ـرُ وأَنْ لا تَـرِينَـه بِـاتقـاءِ[4]

فقوله: رانت به الخمر، أي غلبت على عقله وقلبه. وقال الأمويّ: قد أران القوم فهم مُرِينون: إذا هلكت مواشيهم وهُزِلت. وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم، فلا يستطيعون ٱحتماله. قال أبو زَيد يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْناً: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له

---

(١) راجع ١/١٨٨ فما بعدها. (٢) [وعلاك]: زيادة من («اللسان»: ران)، تتميماً لكلام أبي عبيد. (٣) في النهاية لابن الأثير: أي أحاط الدين بماله.

(٤) البيت في («اللسان»: ران) منسوباً لأبي زبيد، يصف سكراناً غلبت عليه الخمر.

وقال أبو مُعاذ النحويّ: الرَّين: أنْ يسودّ القلب من الذنوب، والطَّبَع أن يُطْبَع على القلب، وهذا أشد من الرَّين، والإقفال أشد من الطَّبَع. الزَّجّاج: الرَّيْن: هو كالصدأ يُغَشِّي القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، يقال؛ غِين على قلبه: غُطِّي. والغَين: شجر ملتف، الواحدة غيناء، أي خضراء، كثير الورق، ملتفة الأغصان. وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب. وذكر الثعلبيّ عن ٱبن عباس: ﴿ران على قلوبِهم﴾: أي غطَّى عليها. وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والمفضل «ران» بالإمالة؛ لأن فاء الفعل الراء، وعينه الألف منقلبة من ياء، فحسنت الإمالة لذلك. ومن فتح فعلى الأصل؛ لأن باب فاء الفعل في (فَعَلَ) الفتح، مثل كال وباع ونحوه. وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ووقف حفص «بَلْ» ثم يبتدىء «رَانَ» وقفا يُبَيِّن اللام، لا للسكت.

قوله تعالى: ﴿كلا إنهم﴾ أي حقاً «إنهم» يعني الكفار ﴿عن ربِهم يومئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لمحجوبون﴾. وقيل: «كلاَّ» ردع وزجر، أي ليس كما يقولون، بل ﴿إنهم عن ربِهم يومئذٍ لمحجوبون﴾. قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عزّ وجلّ يُرَى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خُصَّت منزلة الكفار بأنهم يحجبون. وقال جلّ ثناؤه: ﴿وجوه يومَئذٍ ناضِرة، إِلى ربها ناظِرة﴾ فأعلم الله جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محبوبون عنه، وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالسخط، دل على أن قوماً يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ لمحجوبون ﴾: أي عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وعلى الأول الجمهور، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه. ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحِيم ﴾ أي

(١) الرين: هو الختم، أي الطبع على القلب كما في «اللسان» مادة «رين».

ملازموها، ومحترقون فيها غير خارجين منها، ﴿كلما نضِجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ و ﴿كلما خبت زِدناهم سعِيراً﴾. ويقال: الجحيم الباب الرابع من النار. ﴿ثم يقال﴾ لهم أي تقول لهم خزنة جهنم ﴿هذا الذِي كنتم بِهِ تكذبون﴾ رسل الله في الدنيا.

[١٨] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾.

[١٩] ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

[٢٠] ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾.

[٢١] ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿كلا إِن كتاب الأبرارِ لفي عِلِيين﴾ «كَلَّا» بمعنى حقاً، والوقف على «تكذبون». وقيل أي ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا، بل كتابهم في سجين، وكتاب المؤمنين في عِلِيين. وقال مقاتل: كَلّا، أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يَصْلَونه. ثم ٱستأنف فقال: ﴿إِن كتاب الأبرارِ﴾ مرفوع في عليين على قدر مرتبتهم. قال ٱبن عباس: أي في الجنة. وعنه أيضاً قال: أعمالهم في كتاب الله في السماء. وقال الضحاك ومجاهد وقتادة: يعني السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. ورَوَى ٱبن الأجلح عن الضحاك قال: هي سِدْرة المنتهى، ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها، فيقولون: ربِّ! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم، فيأتيه كتاب من الله عزّ وجلّ مختوم بأمانه من العذاب. فذلك قوله تعالى: ﴿كلا إِن كتاب الأبرارِ﴾. وعن كعب الأحبار قال: إن روح المؤمن إذا قبضت صُعد بها إلى السماء، وفُتحت لها أبواب السماء، وتلقَّتها الملائكة بالبشرَى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم من تحت العرش، رَقّ فيرقم ويختم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقرَّبون. وقال قتادة أيضاً: «فِي عِلِيِّين» هي فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى. وقال البَرَاء بن عازِب قال النبي ﷺ: «عِلِّيون في السماء السابعة تحت العرش». وعن ٱبن عباس أيضاً؛ هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش، أعمالهم مكتوبة فيه. وقال الفراء: عِليون ٱرتفاع بعد ٱرتفاع. وقيل: عليون أعلى الأمكنة. وقيل: معناه علوّ في علوّ مضاعف، كأنه لا غاية له؛ ولذلك جمع بالواو والنون. وهو معنى قول الطبريّ. قال الفراء: هو ٱسم موضوع على صفة الجمع، ولا واحد له من

لفظه؛ كقولك: عشرون وثلاثون، والعرب إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية، قالوا في المذكر والمؤنث بالنون. وهي معنى قول الطبري. وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع، كما تقول هذه قِنَّسْرون، ورأيت قنّسرين. وقال يونس النحوي واحدها: عليّ وعلِية. وقال أبو الفتح: علِيين: جمع علِيّ، وهو فِعِّيل من العلوّ. وكان سبيله أن يقول عِلِّية كما قالوا للغرفة عِلِّية؛ لأنها من العلو، فلما حذف التاء من عِلية عوضوا منها الجمع بالواو والنون، كما قالوا في أرضين. وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم الملأ الأعلى؛ كما يقال: فلان في بني فلان؛ أي هو في جملتهم وعندهم. والذي في الخبر من حديث ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عِليين لينظرون إلى الجنة من كذا، فإذا أشرف رجل من أهل عِليين أشرقت الجنة لضياء وجهه، فيقولون: ما هذا النور؟ فيقال أشرف رجل من أهل عِليين الأبرار أهل الطاعة والصدق». وفي خبر آخر: «إن أهل الجنة ليرون أهل عِليين كما يُرى الكوكب الدُّرِّيُّ في أفق السماء» يدل على أن عِليين اسم الموضع المرتفع. وروى ناس عن ابن عباس في قوله «عِليين» قال: أخبر أن أعمالهم وأرواحهم في السماء الرابعة. ثم قال: ﴿وما أدراك ما عليون﴾ أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون؟ على جهة التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ثم فسره له فقال: ﴿كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾. وقيل: إن «كتاب مرقوم» ليس تفسيراً لعلّيين، بل تم الكلام عند قوله: «عليون» ثم ابتدأ وقال: «كتاب مرقوم» أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار؛ قاله القشيريّ. وروي: أن الملائكة تصعد بعمل العبد، فيستقبلونه[1] فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم: إنكم الحفَظَة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه أخلص لي عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفرت له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيتركونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه لم يخلص لي عمله، فاجعلوه في سِجِّين.

(١) فيستقبلونه: كذا في أ، ب، ح، ط، ل.

قوله تعالى: ﴿يشهدهُ المقرَّبُون﴾ أي يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة. وقال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل عليه السلام، فإذا عمل المؤمن عمل البر، صَعِدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض، حتى ينتهي بها إلى إسرافيل، فيختم عليها ويكتب فهو قوله: ﴿يشهده المقربون﴾ أي يشهد كتابتهم.

[٢٢] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾. [٢٣] ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الأبرار﴾ أي أهل الصدق والطاعة. ﴿لفي نعيم﴾ أي نَعْمَة، والنَّعمة بالفتح: التنعيم؛ يقال: نَعَّمه الله وناعمه فتنعم، وامرأة منعَّمة ومناعَمة بمعنى. أي إن الأبرار في الجنات يتنعمون. ﴿على الأرائِكِ﴾ وهي الأسرة في الحِجال ﴿ينظُرون﴾ أي إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد. وقال مقاتل: ينظُرون إلى أهل النار. وعن النبي ﷺ: «ينظرون إلى أعدائهم في النار» ذكره المَهْدَوِيّ. وقيل: على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله.

قوله تعالى: ﴿تعرِفُ فِي وجوهِهِم نَضْرَة النعِيم﴾ أي بهجته وغضارته ونوره؛ يقال: نضر النبات: إذا أزهر ونوّر. وقراءة العامة «تعرِفُ» بفتح التاء وكسر الراء «نَضْرَةَ» نصباً؛ أي تعرف يا محمد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وابن أبي إسحاق: «تُعْرَف» بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول «نضرة» رفعاً. ﴿يُسْقَون مِن رحِيقٍ﴾ أي من شراب لا غِش فيه. قاله الأخفش والزجّاج. وقيل، الرحيق الخمر الصافية. وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر. والمعنى واحد. الخليل: أقصى[١] الخمر وأجودها. وقال مقاتل وغيره: هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة، قال حسان:

(١) كذا في الأصول كلها ولعل الصواب: أصفى الخمر.

يَسْقون مَنْ وَرَدَ البريصَ عَلَيْهِمُ بَرَدَى يُصَفَّق بالرحِيقِ السلسلِ[١]

وقال آخر[٢]:

أمْ لا سبيلَ إلى الشباب وذكره أَشْهى إِليّ مِن الرحيقِ السَّلْسَلِ

﴿مختوم خِتامه مسك﴾ قال مجاهد؛ يختم به آخر جُرْعة. وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس، أنختم ذلك بخاتم المسْك. وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك. ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه. وهو حسن؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكَدَر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. وعن مسروق عن عبد الله: قال المختوم الممزوج. وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يَفُكَّ ختامها الأبرار. وقرأ عليّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي «خاتَمه» بفتح الخاء والتاء وألف بينهما. قاله علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتمَه مسكاً، تريد آخره. والخاتمَ والخِتام متقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والخِتَام المصدر؛ قاله الفراء: وفي الصحاح: والخِتام: الطين الذي يُخْتم به. وكذا قال مجاهد وابن زيد: خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطين. حكاه المهدويّ. وقال الفرزدق:

وبِت أَفُضّ أغلاق الخِتامِ[٣]

وقال الأعشى:

وأبرزها وعليها خَتَمْ[٤]

أي عليها طينة مختومة؛ مثل نَفْضٍ بمعنى منفوضٍ، وقَبْضٍ بمعنى مقبوضٍ. وذكر ابن المبارك وابن وهب، واللفظ لابن وهب، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿خِتامه مِسْك﴾: خَلْطه، ليس بخاتم يختم، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم: إن خِلْطه من الطِّيب كذا وكذا.

---

(١) تقدم شرح البيت بهامش ص ١٤١ من هذا الجزء. (٢) هو أبو كبير الهذلي.

(٣) صدر البيت: فبتن جنابتي مصرعات

(٤) صدره: وصهباء طاف يهوديها

إنما خِلْطه مسك؛ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختِمون به آخر أشربتهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها. وروى أُبَيُّ بن كعب قال: قيل يا رسول الله ما الرحيق المختوم؟ قال: «غُدْران الخمر». وقيل: مختوم في الآنية، وهو غير الذي يجري في الأنهار. فالله أعلم. ﴿وفِي ذلِك﴾ أي وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿فليتنافسِ المتنافِسون﴾ أي فليرغب الراغبون؛ يقال: نَفَسْت عليه الشيء أَنْفِسه نفاسة: أي ضنِنت به، ولم أحبَّ أن يصير إليه. وقيل؛ الفاء بمعنى إلى، أي وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل؛ نظيره: لِمِثْلِ هذا فليعملِ العامِلون». ﴿ومِزاجُه﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق ﴿مِن تسنِيم﴾ وهو شراب ينصبّ عليهم من علوّ، وهو أشرف شراب في الجنة. وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل؛ ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور. وروي عن عبد الله قال: تسنيم عين في الجنة يشرب بها المقرّبون صِرْفاً، ويمزح منها كأس أصحاب اليمين فتطيب. وقال ٱبن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿ومِزاجه مِن تسنِيم﴾ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخْفِي لهم مِن قُرَّةِ أَعينٍ﴾. وقيل: التسنيم عين تجري في الهواء بقدرة الله تعالى، فتنصبُّ في أواني أهل الجنة على قدر مائها، فإذا ٱمتلأت أمسك الماء، فلا تقع منه قطرة على الأرض، ولا يحتاجون إلى الاستقاء؛ قاله قتادة. ٱبن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش. وكذا في مراسيل الحسن. وقد ذكرناه في سورة «الإنسان»[1]. ﴿عيناً يشرب بِها المقربون﴾ أي يشرب منها أهل جنة عدنٍ، وهم أفاضل أهل الجنة، صِرْفاً، وهي لغيرهم مِزاج. و «عيناً» نصب على المدح. وقال الزجاج: نصب على الحال من تسنيم، وتسنِيم معرفة، ليس يعرف له ٱشتقاق، وإن جعلته مصدراً مشتقاً من السنام فـ «ـعيناً» نصب؛ لأنه مفعول به؛ كقوله تعالى: ﴿أو إطعام فِي يومٍ ذي مسغبةٍ * يتِيماً﴾ وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم. وعند الأخفش بـ «ـيُسْقَون» أي يسقون عيناً أو من عين. وعند المبرد بإضمار أعني على المدح.

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء.

[٢٩] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

[٣٠] ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

[٣١] ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ .

[٣٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

[٣٣] ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ .

[٣٤] ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

[٣٥] ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

[٣٦] ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أَجرموا﴾ وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم، والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك. روى ناس عن ٱبن عباس قال: هو الوليد بن المغيرة، وعُقْبة بن أبي مُعَيْط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث؛ وأولئك ﴿كانوا مِن الذِين آمنوا﴾ من أصحاب محمد ﷺ مثل عَمار، وخَبَّاب وصُهَيب وبِلال ﴿يضحكون﴾ على وجه السخرية. ﴿وإِذا مروا بِهم﴾ عند إتيانهم رسول الله ﷺ ﴿يتغامزون﴾: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي يعيِّرونهم بالإسلام ويعيبونهم به؛ يقال: غمزت الشيء بيدي؛ قال:

وكنـت إذا غمـزتُ قنـاةَ قـومٍ كَسَـرْت كُعـوبَهـا أو تستقِيمـا

وقالت عائشة: كان النبي ﷺ إذا سجد غمزني، فقبضت رجلي. الحديث؛ وقد مضى في «النساء»[1]. وغمزته بعيني. وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال غمزه: أي عابه، وما في فلان غَمْزة أي عيب. وقال مقاتل: نزلت في عليّ بن أبي طالب جاء في نفر من المسلمين إلى النبي ﷺ فلَمَزَهُمُ المنافقون، وضحكوا عليهم وتغامزوا. ﴿وإذا ٱنقلبوا﴾ أي ٱنصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذَويهم ﴿ ٱنقلبوا فكِهِين ﴾ أي مُعَجَّبين منهم. وقيل: مُعْجَبون بما هم عليه من الكفـر، متفكهون بذكر المؤمنين . وقرأ ٱبن القعقاع وحفص والأعرج والسلميّ : « فكِهين » بغير ألف . الباقون بألف . قال الفـراء : هما لغتان مثل

(١) راجع ٥/٢٢٦.

طمِع وطامِع وحَذِرَ وحاذِر وقد تقدم في سورة «الدخان»[١] والحمد لله. وقيل: الفكِه: الأشِر البطر والفاكه: الناعم المتنعم. ﴿وإذا رأوْهُمْ﴾ أي إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد ﷺ ﴿قالوا إن هؤلاءِ لضالُّون﴾ في اتباعهم محمداً ﷺ ﴿وما أُرسِلوا عليهِم حافِظِين﴾ لأعمالهم، موكلين بأحوالهم، رقباء عليهم ﴿فاليومَ﴾ يعني هذا اليوم الذي هو يوم القيامة ﴿الذين آمنوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِن الكفارِ يضحكون﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا. نظيره في آخر سورة «المؤمنين»[٢] وقد تقدم. وذكر ابن المبارك: أخبرنا محمد بن بشار عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فاليوم الذِين آمنوا مِن الكفارِ يضحكون﴾ قال: ذُكِر لنا أن كعبا كان يقول إن بين الجنة والنار كُوّى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكُوَى؛ قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فاطلع فرآه فِي سواءِ الجحِيم﴾ قال: ذُكِر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تَغْلِي. وذكر ابن المبارك أيضاً: أخبرنا الكلبيّ عن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿الله يستهزِىء بِهِم﴾ قال: يقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غُلِّقت دونهم؛ فذلك قوله؛ ﴿الله يستهزِىء بِهِم﴾ ويضحك منهم المؤمنون حين غُلِّقتْ دونهم فذلك قوله تعالى: ﴿فاليوم الذِين آمنوا مِن الكفارِ يضحكون﴾. ﴿على الأرائِكِ ينظُرون * هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون﴾ وقد مضى هذا في أول سورة «البقرة»[٣]. ومعنى «هل ثُوِّب» أي هل جُوزي بسخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك. وقيل: إنه متعلق بـ «ينظرون» أي ينظرون: هل جُوزي الكفار؟ فيكون معنى هل [التقرير] وموضعها نصباً بـ «ينظرون». وقيل: استئناف لا موضع له من الإعراب. وقيل: هو إضمار على القول، والمعنى؛ يقول بعض المؤمنين لبعض ﴿هل ثُوِّب الكفار﴾ أي أُثيب وجُوزي. وهو من ثاب يثوب أي رجع؛ فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويستعمل في الخير والشَّر.

ختمت السورة والله أعلم.

---

(١) راجع ١٦/ ١٣٩.

(٢) راجع ١٢/ ١٥٥.

(٣) راجع ١/ ٢٠٨.